الهوية الوطنية

في شعر حافظ إبراهيم

إعداد الدكتور

محمد أحمد عبد الرحمن سليمان

مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بالقاهرة ـ جامعة الأزهر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد.

فإن الأدب على مر ع صوره واختلاف أزمانه قد عاش مع المجتمع، ومثَّل الواقع، ولم ينغلق على نفسه، ولم ينطوِ على ذاته؛ وذلك لأنه تعبير عن وجود الإنسان، وت صوير لحياة الناس، وترجمان لمعاناتهم، وتجسيد لآلامهم وآمالهم، وهذا نابع من اللغة الأم التي هي أساس يقوم عليه فكر الأمة وتاريخها في مختلف الع صور والأزمان، واللغة العربية كذلك هي أساس في استنهاض الهوية القومية، وتعزيز الروح الوطنية، والحفاظ عليها ضد دعوات التغريب والتبديد، والإلغاء والإحلال، كما أنها ضرورة في تحقيق الذات، وتحصينها من أشكال الاختراق والغزو بأشكاله وألوانه.

والأمة التي تُعنى بلغتها هي أمة قد امتلكت عن صرًا أساسيًا في إثبات ذاتها، واستنهاض عزائم أبنائها، وتعزيز حبهم لأوطانهم، وحمايتهم من كل أشكال الاندثار والاختفاء، كما أن الأمة التي تخسر لغتها تُضَيِّع هويتَها، وتفقد خصوصيتها، ولا تستطيع تح صين ذاتها، ولا حماية مستقبلها؛ ومن أجل ذلك أدرك الأدباء والكتاب والشعراء أن هوية الأمة لا يمكن تغييرها، ولا ي صلح استبدالها أو إحلال غيرها محلها؛ فنبَّهوا إلى تعزيز دورها، والاستزادة من علومها ومعارفها وآدابها، ومن هنا يظهر دور الأدب في تعزيز الهوية الدينية والقومية والوطنية والثقافية.

وهوية الأمة هي ثبوتها ودوامها، وبقاؤها واستمرارها، وهوية الإنسان باقية، مهما شرق أو غرب، ومستمرة مهما بعّد أو قرّب، وخطاب الهوية في الأدب العربي

موجود منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحالي فالشاعر في الجاهلية كان ابنَ مجتمعه، يتفاعل مع بيئته، يتنقل في الصحاري الشاسعة، والفيافي الواسعة بحثًا عن كلأ أو عيش أو متاع، فتجلَّى في شعرهم مضاداتٌ عجيبة، ومفارقاتٌ غريبة، جمعوا فيها بين الحب والكره، والبر والعقوق، والأمانة والخيانة، والوفاء والغدر، وذلك من أثر البيئة القاحلة التي عاشوا فيها، وعبروا عن مكنونها، ورسموا لوحات فنية لمآسيها وأحزانها، ولم يتخلَّوا عن انتماءاتهم القبلية، وهويتهم العربية.

وفي العصر الحديث تجلى خطاب الهوية واضحًا لا سيما في عصر النهضة الأدبية الحديثة والتي كانت فيه قوى الاحتلال الغربي مسيطرةً على مقدَّرات الأوطان وخيراتها؛ مما جعل الشعراء يتكئون على ماضيهم، ويبحثون في تراثهم عن نماذج حية يستنهضون بها الهمم، ويوقظون بها العزائم، فتجلى في خطابهم الإبداعي هويتهم العربية، وثقافتهم الدينية، وحبهم الشديد لتاريخهم وحضارتهم ودينهم وأمتهم، والمتأمل في الإبداع الأدبي في عصر النهضة وما تلاه من عقود يجد أن مكونات الهوية لدى الشعراء كان منها ما هو ثابت، ومنها ما هو متغير ومتحول، فالمكونات الثابتة تمثلت في الدين واللغة والوطن والتاريخ، والمكونات المتغيرة تمثلت في العادات والتقاليد والثقافات والحضارات.

وقد تجلَّتْ هذه المكونات بشكل كبير في تجارب شاعرنا حافظ إبراهيم، الذي عاش لهويته، وعبر في تجاربه عن وطنيته، وتجلى في شعره خطاب الهوية القومية، وتبدت فيه الشخصية المصرية؛ فاستحق بجدارة أن يكون شاعر النيل بحق، وصوت الوطن بصدق، وأن يكون خير ترجمان للشعب في أحاسيسه وآماله، وخير مواس له في

مآسيه وآلامه، وقد أضْفَتْ هذه الوطنية على شعره هالة من العظمة والمجد، حيث كان معينًا لا ينضب من الكفاح الوطني، ومصدرًا ثرًّا للنضال الشعبي، ومن هنا جاءت هذه الورقة البحثية لتسلِّط الضوء على هذا الجانب المهم من شعر حافظ وقد جاءت بعنوان:

(الهوية الوطنية في شعر حافظ إبراهيم)

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عدة أسباب، من أهمها ما يأتي:

أن هوية الأمة هي أساس وجودها، وعامل نهضتها، وسبيل قوتها، فمن كان معتصمًا بهويته، معتزًا بوطنيته؛ امتلك ذاتيته، وحافظ على حاضره ومستقبله.

ثانيًا: أن حافظًا اتسم في شعره الوطني بحبه الشديد للوطن، والذي امتلك عليه شغاف قلبه، وألهمه الذود عن حريته واستقلاله، فكانت تجاربه الشعرية، وقصائده الوطنية جديرة بالبحث والدراسة في ضوء الهوية الدينية واللغوية والوطنية والقومية.

أن تجارب حافظ إبراهيم قد تميزت بقوة البلاغة، وإشراق الديباجة، والصور الخلابة، والتراكيب الجذابة، وجمال الأسلوب، وروعة الموسيقى، وحُسن الإيقاع، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على تلك التجارب الشعرية في ضوء التحليل الفني، والدراسة النقدية.

أما عن منهج البحث فقد اقتضت طبيعته أن يكون على المنهج الفني في المقام الأول؛ إذ إنه أنسب المناهج في قراءة النصوص الأدبية، ولأنه يتعمق في بنيتها الجمالية والأسلوبية والدلالية، معتمدًا كذلك على بعض المناهج الأخرى، كالمنهج الاجتماعي، والتاريخي، والاستنباطي.

أما عن خطة البحث فقد جاءت مكونة من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة،

وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطته.

التمهيد: وفيه التعريف بالهوية، وعلاقتها بالأدب العربي.

المبحث الأول: تعزيز الهوية القومية والوطنية، وفيه ما يأتي:

- دفاعه عن لغته
- دفاعه عن وطنه
- دفاعه عن مجتمعه.

المبحث الثاني: غرس القيم الوطنية، وفيه ما يأتي:

- التغنِّي بحب الوطن.
- مدح الوطنيين ورثاؤهم.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

التمهيد: التعريف بالهوية

مفهوم الهوية:

من المعلوم أن الأدب يعبر عن قائله، وينم عن شخصية مبدعه، كما أن أنجع التجارب الإبداعية هي التي تعبر عن روح العصر، وتجسد ما في واقع الناس، وتصور آمالهم، وتعبر عن تطلعاتهم وأحلامهم، ومن هنا كان الأدب والهوية وجهين لعملة واحدة، فلا أدب بلا هوية، ولا شعر بلا نزعة دينية أو قومية أو ثقافية أو نفسية أو غير ذلك من أشكال الهوية وأنواعها، وفي هذه الصفحات إطلالة سريعة على خطاب الهوية في ديوان شاعر النيل (حافظ إبراهيم)، وقبل الولوج في غمار هذا الموضوع الشائق الرائق ينبغي التعريج أولاً على مفهوم الهوية من حيث اللغة والاصطلاح، فأقول:

الهوية في اللغة:-

كلمة هُوية مشتقة من ضمير الغائب (هو)، وقد ذكر ابن منظور أن "هُوَيَّةٌ تَصْغِيرُ هُوّة، وَقِيلَ: الهَوِيَّةُ بِئْرٌ... بَعِيدةُ المَهْواةِ، وعَرْشُها سَقْفُهَا المُغَمَّى عَلَيْهَا بِالتُّرَابِ فيَغْتَرُّ بِهِ واطِئُه فيَقَع فِيهَا ويَهْلِك، أَراد لَمَّا رأَيتُ الأَمرَ مُشْرِفًا بي على هَلَكةِ طواطي سَقْفِ هُوَّةٍ مُغَمَّاةٍ تَرَكْتُهُ وَمَضَيْتُ وتسَلَّيْت عَنْ حَاجَتِي مِنْ ذَلِكَ الأَمر، وشَمَّرُ: اسْمُ نَاقَةٍ أَي رَكِبْتُهَا وَمَضَيْتُ. ابْنُ شُمَيْلٍ: الهُوَّةُ ذاهبةٌ فِي الأَرض بَعِيدَةُ الْقَعْرِ مِثْلُ الدَّحْلِ غَيْرَ أَن لَهُ أَلجافًا، والجماعةُ الهُوُّ، ورأْسُها مثلُ رأْس الدَّحْل. الأَصمعي: هُوَّةٌ وهُوًى. والهُوَّة: البئر؛ قاله أَبو عَمْرٍو، وَقِيلَ: الهُوَّة الحُفْرة الْبَعِيدَةُ الْقَعْرِ، وَهِيَ المَهْواةُ. ابْنُ الأَعرابي: الرِّوَايَةُ عَرْشَ هُوِيَّة، أَراد أُهْوِيَّةٍ، فَلَمَّا سَقَطَتِ الْهَمْزَةُ رُدَّت الضَّمَّةُ إِلَى الْهَاءِ، الْمَعْنَى لَمَّا رأَيت الأَمر مُشْرِفًا عَلَى الْفَوْتِ مَضَيْتُ وَلَمْ أُقم. وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا عَرَّسْتم

فـاجْتَنِبُوا هُـوِيَّ الأَرضِ..."[١]، فكلمـة الهويـة تـدل علـى حقيقـة الشـيء وأصـله، ولا بـد لكـل شـيء مـن أصـل يـرد إليـه ويرجـع؛ ولـذلك جـاءت كلمـة (هويـة) مـن ضـمير الغائـب هو وهما وهم وهن.

وجـاء في معجـم اللغـة العربيـة المعاصـر أن الهويـة "م صدر صـناعيّ مـن هُـه، وهويـة الإنسـان هـي بطاقـة يُثْبَـتُ فيهـا اسـم الشـخص وتـاريخ مـيلاده ومكـان مولـده وجنسـيّته وعملـه، وتسـمَّى البطاقـة الشخ صيّة أيضًـا "يحمـل بطاقـة هُويَّـة- شـخص مجهـول الهُويَّـة، تـذكرة إثبـات الهُويَّـة: وثيقـة رسـميَّة تحمـل اسـم الشـخص ورسـمَه وسـماتِه وتثبـت شخ صيَّته، ت صدر مـن الحكومـة..." [٢]، ومـن ثـم نـدرك أن الهويـة تعنـي الحقيقـة والأصـل، فهويـة الإنسـان هـي أصـله الآدمـي، وحقيقتـه التـي خلقـه الله عليهـا، وهويـة الغريب عن موطنه هي وطنه الذي نشأ فيه، والذي (هو) منسوب إليه.

الهُوية في الاصطلاح:

يعـد هـذا الم صطلح مـن الكلمـات التـي تباينـت فيهـا وجهـات النظـر، وتعـددت فيهـا التعريفـات؛ ذلـك أن كـل علـم يتنـاول الم صطلح مـن وجهتـه، ويعرفـه حسـب فنـه وطريقتـه، فالهويـة "نخضـع في تعريفهـا للعلـم الـذي يحقـق فيهـا، ولكـل علـم تعريفـه الخـاص، يختلـف عـن تعريفهـا في العلـم الآخـر، كعلـم الـنفس والاجتمـاع والفلسـفة والسياسـة وغيرهـا مـن العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة..." [٣]، أي أن الدلالـة

(١) ابن منظور (لسان العرب)، مادة (هوي).

(٢) أحمد مختار (معجم اللغة العربية المعاصرة)، مادة (هوي).

(٣) د/ خليل نوري مسيهر (الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية)، صـ ٤٠، سلسلة الدراسات الإسلامية العاصرة ٥٨، العراق، ديوان الوقف السني.

الاصطلاحية لهذه الكلمة ليست واحدة، وليست أمرًا متفقًا عليه، ومن هذه التعريفات ما يأتي:

جاء في تعريفات الجرجاني أن الهوية هي "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"(١)، فهوية الإنسان هي حقيقته المطلقة، ونواته الثابتة.

وجاء في كليات الكفوي(٢) أن الهوية هي "لفظ فِيمَا بَينهم يُطلق على معانٍ ثَلَاثَة: التشخص والشخص نَفسه والوجود الْخَارِجِي. قَالَ بَعضهم: مَا بِهِ الشَّيْء هُوَ هُوَ بِاعْتِبَار تحَققه يُسمى حَقِيقَة وذاتًا، وَبِاعْتِبَار تشخ صه يُسمى هوية، وَإِذا أَخذ أَعم من هَذَا الِاعْتِبَار يُسمى مَاهِيَّة، وَقد يُسمى مَا بِهِ الشَّيْء هُوَ هُوَ مَاهِيَّة إِذا كَانَ كليًا كماهية الْإِنْسَان، وهوية إِذا كَانَ جزئيًا كحقيقة زيد..."(٣)، فالهوية إذن هي أساس ثابت، وحقيقة لازمة، ووجود لصاحبه لا يتزعزع ولا يتحرك.

وقيل إن الهوية هي: "مجموعة السمات التي تميز الإنسان من سواه، وتتشكل هذه السمات من علاقة الإنسان بالآخر، وهي علاقة إشكالية تتحكم بها مفاهيم أيديولوجية ونفسية واجتماعية، كما تتجاذبها مواقف تتنوع بين الانتماء والإبداع

(١) الشريف الجرجاني (التعريفات)، صـ ١٥٧، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط/ ١ / ١٩٨٣م.

(٢) أبو البقاء الكفوي، هو أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، الملقب بأبي البقاء. يُعد أبو البقاء من قضاة المذهب الحنفي. ولد في مدينة كَفَه بالقرم. درس الفقه وعلوم اللغة العربية، وضلع فيها. واستلم الإفتاء والقضاء في مدينته بعد موت أبيه. ثم استلم القضاء في القدس وفي بغداد.، توفي سنة ١٠٩٤ هـ.

(٣) أبو البقاء الكفوي (الكليات)، صـ ٩٦١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

والكينونة والصيرورة" [1]، فهوية الإنسان تتشكل من خلال علاقته بغيره من الناس، واحتكاكه مع الآخرين، فمن خلال ذلك تتكون لدى كل إنسان هويته الخاصة به، سواء أكانت نفسية ذاتية أم خارجية لا إرادية.

وفي علم النفس والاجتماع تتلاقى الدلالة الاصطلاحية لكلمة الهوية أيضًا، فالاستمرار والثبات دلالة على هوية الشيء وكينونته، وتميزه عن غيره دليل على ثبوته ورسوخه، هكذا الهوية ثابتة لا تتغير، وباقية لا تتحرك، ومستمرة لا منقطعة.

ومن خلال التعريفات السابقة نلاحظ أنها تتلاقى جميعًا في أن الهوية هي الثبوت والدوام، والبقاء والاستمرار، وهوية الإنسان هي بقاؤه معتزًا بنفسه، شامخًا بدينه، مفتخرًا بلغته، معتزًا بوطنه.

(١) محمد إبراهيم علي (إشكالية الهوية في شعر محمد عمران)، صـ ٣٠، مجلة تحاد الكتاب العرب، مجلد ٤١، عدد ٤٩٤، ٢٠١٢م.

المبحث الأول

تعزيز الهوية القومية والوطنية

عاش حافظ إبراهيم حياته بين أبناء مجتمعه، يشعر بآلامهم، ويتألم لأحزانهم، ويتطلع لتحقيق آمالهم، ويعبر عن قضيتهم، ويناضل من أجل تحقيق حريتهم؛ فاستحق أن يكون شاعر النيل، وشاعر المجتمع، الذي يحب وطنه بـ صدق، ويجعل من شعره وسيلة للدفاع عن أمته، والتعبير عن قضايا عروبته، وقد امتاز حافظ بأنه نشأ نشأة شعبية؛ فكان شعره أقرب إلى روح الشعب والمجتمع، وأكثر تعبيرًا عن مآسي الناس وأحزانهم، وتـ صويرًا لآمالهم وتطلعاتهم؛ لأنه عاش فيها، واكتوى بلهيبها، فكان لشعره أبلغ الأثر في النفوس، وأكثر سهولة ومرونة عند المتلقين والقراء، ولا شك أن شاعرًا كهذا يكون ذا حس وطني، وشعور قومي، وانتماء مـ صري، ظهرت بوادره في قـ صائده وتجاربه، التي نمّت هذا الشعور، وأذكت ناره بلهيب الوطنية الغالية، والهوية المـ صرية الواضحة، وقد عزَّز حافظٌ هذا الانتماء الوطني بكثير من القصائد والتجارب التي يمكن تصنيفها وتقسيمها إلى صور ثلاثة، كما يأتي:

أولاً: دفاعُه عن اللغة العربية

لا شك أن لغة الإنسان هي حياته وهُويتُه؛ إذ من خلالها يتواصل مع غيره، ويعبر بها عن كوامنه النفسية، ومشاعره الوطنية، وآرائه الشخـ صية، وقضاياه القومية والعرقية، "وإذا كان لكلِّ أمةٍ حضارةٌ مبنّيةٌ على لغتِها وثقافتِها، فكلّ اختلال يعرضُ لِهذهِ الحضارة يكون نتيجة غياب لغتِها عن التداولِ، أو قلة الاحتفال بها، فتضعفَ سيطرتُها عليهم، إذ هي الرَّحِم بينهم، ويكون ذلك إيذانًا بانهيار حضارتهم أو سقوطها، وبين الإحاطة باللغة والقـ صور عنها، مزالق ومخاطر تستوجب الحذر، تضل

عنها العقول، فتنقلب المعاني مُشوهة الصورة، فلا يتبين صحيحها من مزيفها، ولا صوابها مِنْ خطئِها، واللغة مفتاح، يساعدنا على ولوج أي مجتمع من المجتمعات، للكشف عن أنواع سلوكه ونشاطه الثقافي والاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي، وتحديد ملامح شخصيته في عصر من العصور، والعلاقة بين اللغة والفكر، هي العلاقة بين الألفاظ والمعاني، وقدرة اللفظ على اختزان المعاني أو قُدرة الفكر على شَحْن الألفاظ بأكبر طاقة من المعاني"[1].

وقد كان حافظ من الشعراء الذين يعتزون بلغتهم، ويدافعون عنها، ويقفون في وجه دعاة التغريب والعامية؛ لأنه عشق اللغة منذ نعومة أظفاره، وتفتقت موهبته الشعرية من السادسة عشرة من عمره، فكان حبه للغة حبًا غريزيًا، وكان شعره صورة صادقة لهذا الحب العميق، وكان بلا شك ترجمانًا حقيقيًا لصوت الشعوب في أحاسيسهم وآمالهم، ومآسيهم وآلامهم، وذلك في لغة سهلة متداولة، وصور شعرية مؤثرة ومعبرة، وقد عاش شاعر النيل في فترة زمنية عصيبة، ظهرت فيها دعوات التغريب المغرضة، والدعوة إلى العامية ونبذ اللغة العربية الفصيحة، وكان حافظ مع غيره من شعراء الإحياء والبعث معاصرين "معركة الفصحى والعامية وهي في شدة احتدامها، فوقفوا في جانب الفصحى، لم يكتفوا بما قدموا للفصحى من خدمات تجلَّت في تمكنهم من آدابها القديمة، وفي قيامهم بإحيائها في نتاجهم الغزير، وإنما تصدوا للدفاع عنها في قصائدهم وكتاباتهم، فنظم حافظ قصيدة على لسان اللغة

(١) فاطمة موسى، (اللغة العربية وإشكاليات الهوية)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، بحث منشور بموقع المجلة الإلكتروني بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٢١م، برابط / https: / /www.hnjournal.net/ ٢-١١-٣١/

العربية سنة ١٩٠٣م، عقب الضجة التي أخدثها كتاب (ولمور) الذي حمل على العربية واتهمها بالضعف والعجز عن أداء حاجات العصر، فدافع حافظ في قصيدته هذه عن الاتهامات التي وُجِّهَتْ إلى العربية، مشيدًا بأمجادها الغابرة، وبحماتها المخلصين، مستحثًا أبناءها على مواصلة جهودهم لإحيائها، مبينًا ما تنطوي عليه الدعوة إلى العامية من خطر"[١]؛ فكانت قصيدته هذه من عيون الشعر العربي في الدفاع عن الهوية اللغوية؛ إذ بيَّن فيها عالَمية هذه اللغة، وقدرتها على مواكبة التطور والتجديد، واستطاعتها على التعبير عن كل جديد في مجال العلوم الحديثة، وقد صور حافظ في هذه القصيدة لواعج قلبه، وحسرات نفسه، وغصات فؤاده على ما وصل إليه مجتمعه من دعوات تغريب، واستهانة بأمر لغتهم، التي تمثل هويتهم؛ ولذلك يتخذ من اللغة العربية قناعًا يتستر به؛ ليبث هذه اللواعج النفسية، وتلك الكوامن القلبية، فيقول على لسان اللغة العربية:[٢]

رجَعْتُ لنفسي فاتَّهَمْتُ حصاتِيْ ... ونادَيْتُ قومي فاحْتَسَبْتُ حياتي

رَمَوْنِي بِعُقْمٍ في الشباب وليتَنِيْ ... عَقِمْتُ فلمْ أجْزَعْ لقولِ عِداتِيْ

وَلَدْتُ ولمَّا لَمْ أجدْ لِعرائِسيْ ... رجالًا وأكفاءً وَأَدْتُ بناتي

وَسِعْتُ كتابَ الله لفظًا وغايةً ... وما ضِقْتُ عنْ آيٍ بهِ وعظاتِ

فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ ... وتنسيقِ أسماءٍ لمُخْتَرَعاتِ

(١) د/ نفوسة زكريا سعيد، (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر)، صـ ٣٦٢، دار المعارف- القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

(٢) حافظ إبراهيم، (الديوان)، صـ ٢٥٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

أنـــا البحـــرُ في أحشـــائهِ الـــدُّرُّ كـــامنٌ فهـــل ســـاءلوا الغَـــوَّاصَ عـــن صَـــدَفاتِيْ

في هـذه الأبيـات تتجلـى الهويـة العربيـة واللغويـة عنـد الشـاعر؛ حيـث يعبـر علـى لسـان اللغـة عـن مأسـاته مـن دعـوات التغريـب، وغ صات نفسـه بسـبب تلـك الهجمـات الشرسـة علـى لغـة العـرب الف صيحة، فيبـين أنَّ اللغـة تتحسـر علـى وضـع بـلاد العـرب التـي تحـت وطـأة الاحـتلال الأجنبـي، ولـذلك تشـكو مـرارة اتهامهـا بـالجمود والتخلـف، وعـدم قـدرتها علـى مواكبـة تطـورات الع صر، ومسـتجدات العلـم، يـردُّ الشـاعر هـذه الـدعوات فيـذكر أن اللغـة العربيـة قـد وسـعت كتـاب الله لفظًـا وغايـة، ومـا ضـاقت عـن آياتـه البينـات، وعظاتـه الواضـحات، فهـي لغـة القـرآن الكـريم الـذي تحـدَّى الله بـه أهـل الف صاحة والبلاغـة والبيـان، ولغـة كهـذه لا تضـيق أبـدًا عـن وصـف آلات الع صر الحـديث، أو تنسـيق أسـماء لمخترعاته وتطوراته؛ ولذلك يقول حافظ:[1]

فيـا وَيْحَكـم أُبْلَـى وتُبْلَـى محاسـني ومـــنكم وإن عـــزَّ الـــدواءُ أســـاتِيْ

فـــلا تكلـــوني للزمـــانِ فـــإنني أخـــافُ علـــيكم أنْ تحـــينَ وفـــاتِيْ

أرى لرجـــالِ الغـــربِ عـــزًا ومَنْعَـــةً وَكَـــمْ عـــزَّ أقـــوامٌ بِعِـــزِّ لغـــاتِ

أتَـــوا أهلهـــم بـــالمُعجزات تفننًـــا فيـــا ليـــتكم تـــأتون بالكلمـــاتِ

أيُطـربُكم مـن جانـبِ الغـربِ ناعِـبٌ ينـــادي بـــوأدي في ربيـــعِ حيـــاتي

ولـــو تَزْجُـــرُون الطيـــر يومًـــا علمـــتُمُ بمـــا تحتـــه مـــن عشـــرَةٍ وشـــتاتِ

لا يخفـى علـى القـارئ أن حافظًـا لا زال يبـث شـكواه وحسـرة قلبـه ونفسـه علـى مـا آلـت إليـه دعـوات التغريـب والتخريـب في ثـوب التقـدم والرقـي؛ حيـث يخاطـب علـى لسـان اللغـة

(١) الديوان، صـ ٢٥٤.

أهلها والمتكلمين بها خطاب المعاتب المليء بالأسى والحسرة قائلًا: ويحكم يا أبنائي تبلى محاسني، وتُمحى مآثري إن لم تذودوا عني؛ فمنكم أساتي؛ لأنكم تخلفتم عن دوركم، ولديكم دوائي؛ لأنكم تستطيعون أن تتصدوا لمن يتهمني، فلا تكلوني للزمان الذي يُفني كل شيء. ثم يتحدث الشاعر عن رجال الغرب ودعاة لغته وأن لهم منعة وعزًا؛ لأنهم اعتزوا بلغتهم، ودافعوا عن هويتهم، وكم عز أقوام بعز لغاتهم، وكم ساد أقوام بسيادة لغاتهم! ثم يخاطب الشاعر أبناء لغته بخطاب المستنكر والمعاتب فيقول: أيطربكم ناعب الغرب الذي يريد سلخكم من هويتكم؟! أيعجبُكم غربان دُعاتهم الذي يريدون وأدي ودفني في زهرة شبابي وربيع حياتي؟! ولو أنكم رأيتم هذا الغراب الناعب ورأيتم ما تنطوي عليه دعوته من الإجهاز على لغتكم وهويتكم؛ لرأيتم الشتات والفرقة والاختلاف؛ لأنكم لم تتمسكوا بي، ولم تحافظوا عليّ.

ثمَّ يُكمل الشاعر حسرة قلبه، وأسى نفسه، فيتطرق إلى الحديث عن ماضي الأمة العريق، وتاريخها المجيد، ويذكر أولئك العظماء من أهل اللغة الذين دافعوا عنها، ولم يرضوا بها بديلًا، عاشوا وماتوا وهم متمسكون بها، محافظون عليها، يقول حافظ:(١)

سقى اللهُ في بطن الجزيرةِ أعظُمًا ... يَعِزُّ عليها أنْ تلينَ قناتي
حَفِظْنَ ودادي في البِلَى وحفظتُه ... لهنَّ بقلبٍ دائمِ الحسراتِ
وفاخرتُ أهلَ الغربِ والشرقُ مُطْرِقٌ ... حياءً بتلك الأعظُمِ النَّخِراتِ

في هذه الأبيات تُبدي اللغة العربية تحسرها على رجالاتها الذين دافعوا عنها، وماتوا في

(١) الديوان، صـ ٢٥٤.

سبيلها، وظلوا متمسكين بها؛ ولذلك حفظت لهم لغتُهم هذا الحبَّ ولا زالت تتغنى بمجدهم، ولا زال قلبها دائم الذكر لهم، والتحسر عليهم، بل إنها فاخرت بهم أهل الغرب، وأبناء الغرب مطرقون حياءً من الرجال الذين حافظوا على هويتهم، وظلوا متمسكين بلغتهم في حين أنَّ أهل الشرق في هذا العصر لا يستطيعون أن يفعلوا مثل ما فعل أسلافهم في الدفاع عن لغتهم وهويتهم في زمان كثرت فيه دعوات الانسلاخ من تلك اللغة، وإحلال الأجنبية أو العامية محلها.

ثم يتحدث الشاعر عن الأخطار التي تواجهها اللغة العربية في هذا الزمان من دعوات هدامة على صفحات الجرائد والمجلات فيقول:[1]

أرى كلَّ يومٍ بالجرائدِ مزلَقًا ... من القبر يُدْنيني بغيرِ أناةِ

وأسمعُ للكُتَّابِ في مصرَ ضجَّةً ... فأعلمُ أنَّ الصائحين نُعاتي

أيهجُرُني قومي -عفا الله عنهمُ- ... إلى لغةٍ لم تتصلْ بِرواةِ

سَرَتْ لُوْثَةُ الإفرنجِ فيها كما سرى ... لُعابُ الأفاعي في مسيلِ فراتِ

فجاءَتْ كثوبٍ ضمَّ سبعين رُقْعَةً ... مُشَكَّلَةَ الألوان مُختَلِفاتِ

في هذه الأبيات جاء عتاب اللغة العربية لأبنائها، الذي أحدثوا ضجات متواصلة من شأنها أن تُميت اللغة لا تُحييها، وذلك أنهم أرادوا هجرها، واستبدالها بلغة عامية لم تتصل برواة ولا ثقات، إذ هي لغة سرت فيها ألفاظ الفرنجة كما يسري لعاب الأفاعي في الماء العذب الفرات، فحولتها إلى ثوب خلق مليء بالرقع المتعددة الألوان والأشكال.

(١) السابق، صـ ٢٥٥.

ثم يختم حافظ قصيدته الرائعة بهذه الأبيات، التي يخاطب فيها الكتاب والأدباء والشعراء، فيقول:(١)

إلى معشرِ الكُتَّاب والجمعُ حافلٌ ... بسطْتُ رجائي بعد بسطِ شَكاتي
فإمَّا حياةٌ تبعثُ الموتَ في البِلَى ... وتُنبتُ في تلك الرُّموسِ رُفاتي
وإما مماتٌ لا قيامةَ بعده ... مماتٌ لَعَمْري لَمْ يُقَسْ بمماتِ

ومن خلال هذه القصيدة استطاع حافظ إبراهيم أن يعبر عن إحساسه تجاه لغته، وأن يصور ما تنطوي عليه نفوس أولئك الدعاة إلى التغريب وإحلال العامية محل الفصحى، كما استطاع الشاعر أن يُفصح عن هويته العربية، وأن يدافع عنها بطريقة رمزية مقنعة، مستخدمًا من القناع وسيلة للتعبير عن كوامن نفسه، ومشاعر قلبه تجاه لغته.

ثانيًا: دفاعُهُ عن وطنه

إن الشاعر الوطني هو الذي يعبر شعره عن اعتزاز قوي بالانتماء إلى الأرض والتاريخ المشترك، وإلى الوطن الذي يحمي كرامته، ويصون إنسانيته، ويوفر له الإحساس بالطمأنينة والأمان، ومعلوم أن الأدب الهادف والجاد هو الذي يعبر عن روح الجماعة، ويصور أحاسيس الناس، ويكون صوتهم في التعبير عن آمالهم وآلامهم، وقد كان شعر حافظ إبراهيم خير ترجمان لأحاسيس المجتمع وتطلعاته، تغنَّى بمصر والنيل في قصائد كثيرة، وتحدث عن سلبيات المجتمع وإيجابياته في تجارب عديدة، ودافع عن وطنه دفاعًا مستميتًا، "ولعلَّ بقاءه في السودان عدة سنين،

(١) السابق، صـ ٢٥٥.

ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدبيراتهم في تحقيق أغراضهم وأطماعهم قد زاده سخطًا على المحتل، واستمساكًا بوحدة وادي النيل، وتجلَّت هذه المواهب في شعره في شتى المناسبات حتى سُمِّي بحق (شاعر النيل)"[1]؛ لكثرة إشادته بوطنه، ودفاعه المستمر عن بلده، وحبه العميق للمكان الذي نشأ فيه وتربى، ومن هنا أضفت الوطنية على شعره هالة من العظمة والمجد والسموق، وجعلت لتجاربه قبولًا جماعيًا بين أبناء الوطن والمجتمع.

والمتأمل في ديوان حافظ يجد كثيرًا من القصائد التي تتكشف بالروح الوطنية، والانتماء القومي الذي كان عليه الشاعر، وقد عزز هذا الانتماء، وأذكى هذه الروح تلك الأحداثُ التي كانت تعج بها البلاد تحت وطأة الاحتلال الأجنبي، وقد كان شعر حافظ خير ترجمان لتلك الأحداث التي وقعت، فعبر عنها في تجارب مؤثرة، تفوح منها رائحة حب الوطن، والاعتزاز بالانتماء إليه؛ حيث دافع عن قضاياه في نيل الحرية والاستقلال، ولعل حادثة دنشواي كانت من أبرز الوقائع التي أصابت الشعور الوطني بالهول والفجيعة، وأثارت حفائظ المصريين ضد الاحتلال الأجنبي. وقد استغل الشعراء والأدباء هذا الحدث للتنديد بسياسة الإنجليز ووحشيتهم وظلمهم، وكان حافظ إبراهيم من أبرز الشعراء الذين صوروا هذه الحادثة، ودافعوا عن وطنهم، ونددوا بوحشية عدوهم، وذلك في قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها مخاطبًا هؤلاء المحتلين بسخرية واستنكار:[2]

(١) ينظر: عبد الرحمن الرافعي، (شعراء الوطنية في مصر تراجمهم وشعرهم الوطني والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم)، صـ ٩٦، الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهرة.

(٢) الديوان، صـ ٣٣٤.

أيهـــا القـــائمون بـــالأمر فينـــا ... هـــل نســـيتُم ولاءَنـــا والـــودادا
خفِّضـــوا جيشـــكم ونـــاموا هنيئًـــا ... وابتغـــوا صـــيدكم وجُوبـــوا الـــبلادا
وإذا أعـــــوزَتكمُ ذات طَـــــوق ... بـــين تلـــك الرُّبـــا فصـــيدوا العبـــادا
إنمـــا نحـــن والحَمـــام ســـواء ... لـــم تُغـــادِر أطواقنـــا الأجيـــادا
لا تظنـــوا بِنـــا العقـــوق ولكـــن ... رشِـــدونا إذا ضـــللنا الرشـــادا
لا تُقِيـــدوا مـــن أمـــة بقتيـــل ... صـــادت الشـــمس نفســـه حـــين صـــادا

في هـذه الأبيـات يخاطـب الشـاعرُ المحتلـين بخطـاب الإنكـار والاسـتهجان أن يخفضـوا جيشـهم، وينـاموا هـانئين، ويبتغـوا صـيدهم أنَّـى شـاءوا، ويجوبـوا الـبلاد أنَّـى أرادوا، وإن عـزَّ علـيهم صـيدُ الطيـور بـين الربـا؛ فلـيصيدوا العبـاد!! ولعـل في هـذا الخطـاب الـذي يفـوح منـه اليـأس إشـعارًا بإيقـاظ العـزائم، واسـتنفار الهمـم، وبعـث روح الـدفاع عـن الـوطن، والنضـال ضـد العـدو، ولعـل فيـه أيضًـا تهكمًـا وسـخرية وتعريضًـا بالخـانعين، الـذين رضـوا بالـذل، وقبِلـوا بـالهوان، وأعـانوا الأعـداء علـى النَّيْـل مـن أبنـاء وطـنهم؛ ولـذلك يتحـدث عـنهم، ويـذكر جهلهـم، ويعـرّض بمـوقفهم، ويـ صف الحادثـة، وفظـائع المحاكمة، وطريقة تنفيذها فيقول:[1]

جـــاء جُهالنـــا بـــأمر وجئـــتم ... ضـــعفَ ضـــعفَيه قســـوةً واشـــتدادا
أحسِـــنوا القتـــل إن ضـــننتم بعفـــو ... أقصاصًـــا أردتـــمُ أم كيـــادا؟
أحسِـــنوا القتـــل إن ضـــننتم بعفـــو ... أنفوسًـــا أصـــبتمُ أم جمـــادا؟

(١) الديوان، صـ ٣٣٥.

ليت شعري أتلك «محكمة التفـ ـتيش» عادت أم عهد «نيرون» عادا؟
كيف يحلو من القويِّ التشفِّي من ضعيف ألقى إليه القيادا؟
إنها مُثلةٌ تشفُّ عن الغيـ ـظ ولسنا لغيظكم أندادا
أكرِمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يُكرِم الجوادُ الجوادا
إن عشرين حِجة بعد خمس علمَتنا السكون مهما تمادى
أمة النيل أكبرَت أن تُعادي مَن رماها وأشفقَت أن تُعادى
ليس فيها إلا كلام وإلا حسرة بعد حسرة تتهادى

لا زالت نبرة الحزن واليأس مسيطرة على وجدان الشاعر؛ حيث يصور ما حدث لأبناء الشعب المصري من هؤلاء المحتلين، ويخاطبهم أن يحسنوا القتل إن بخلوا بالعفو عن المحاكَمين؛ لأنهم نفوس بشرية وليست جمادات، وفي هذا السياق المشبع بالأسى، والمليء بالحزن يستدعي حافظ ما حدث لأهل الأندلس على يد الأسبان في محاكم التفتيش، ويستدعي كذلك شخصية (نيرون)، وهو ملك روماني معروف بالقسوة والظلم والاضطهاد والاستبداد، ولا يخفى أن هذا الاستدعاء يوحي بما في قلب الشاعر من أسى وحزن على ما وصل إليه أبناء مصر من استبداد وظلم على يد المحتلين، الذين لم يراعوا في أحد إنسانيته وآدميَّتَه.

وهكذا جاءت أبيات القصيدة معبرة عما في نفس الشاعر من حسرة وألم، ومصورة ما حل بأهل دنشواي من ظلم وقتل واستبداد، ثم يذكر حافظ في أواخر قصيدته خطابًا وجَّهه إلى القاضي الذي حكم على أبناء مصر، وهو (إبراهيم الهلباوي

بك)، وقد دافع عن الإنجليز، ووقف في صفهم، يخاطبه حافظٌ قائلًا:[١]

أيُّهـــا المُـــدَّعِيْ العمـــوميُّ مهـــلًا ... بعـــضَ هـــذا فقـــد بلغـــتَ المُـــرادا
قـــد ضَـــمِنَّا لـــكَ القضـــاءَ بمصـــرٍ ... وضَـــــمِنَّا لنجلِـــــكَ الإســـــعادا
فـــــإذا مـــــا جلســـــتَ فـــــاذكر ... عهـــدَ (مصـــرٍ) فقـــد شـــفَيْتَ الفـــؤادا

لا يخفى على القارئ أن الشاعر يخاطب هذا المدَّعِي بكلام يؤرق القلب، وينغص العيش، ويشعل في صاحب الإحساس نار الندم، ويوقظه من غفلته؛ وذلك لأنه خطاب لاذع قوي، خوطب به من وقف في صف المحتل على حساب أبناء الوطن، وكان ينبغي عليه ألا يستبدل بوطنه أي شيء آخر، لأن هوية المرء لا تُستبدل، ووطنيته لا تتغير.

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى وطنه الغالي (مصر)، الذي ينتمي إليه، ويدافع بكل ما أوتي من قوة عنه، وذلك في أبيات تفيض بالوطنية الحقيقية، والهوية المصرية، من شاعر استطاع أن يوظف أدبه في الدفاع عن وطنه، وأن يجعل من شعره وسيلة لتعزيز الانتماء إلى هذا الوطن، يقول حافظ مخاطبًا مصر، ليعرِّض بهذا المدَّعِي ويطعن في وطنيته وإخلاصه لقومه، فيقول:[٢]

لا جـرى النيـل في نواحيـك يـا (مصـ ... ـرُ) ولا جـادكِ الحَيَـا حيـث جـادا
أنـتِ أنْبَـتِّ ذلـك النَّبْـتَ يـا (مصْـ ... ـرُ) فأضـحى عليـكِ شـوكًا قتـادا

(١) السابق، صـ ٣٣٦.

(٢) السابق، نفس الصفحة.

أنـــتِ أنْبَـــتِّ ناعقًـــا قـــام بالأمـــ ـــسِ فـــأدْمى القلـــوبَ والأكبـــادا

يخاطب الشاعر مصر على سبيل التشخيص، ويذكر لها أنها قد أظلَّت بسمائها أناسًا لا يستحقون الانتماء إليها، وقد أنبتت في أرضها نبتًا أضحى لها شوكًا، وناعقًا ينعق بالشؤم، وينذر بالشر، فأدمى قلوب أبنائها، وأحزن قلوبهم، وفي هذا إشارة إلى أن مصر قد أحسنت إلى بعض أبنائها، فقابلوا إحسانها بالإساءة إليها، وجحود فضلها، وإنكار معروفها، ثم يختم حافظٌ قصيدته بخطاب وجهه إلى هذا المُدَّعِي قائلًا:[1]

إيـــهِ يـــا مِـــدْرَهَ القضـــاءِ ويـــا مَـــن ســـاد في غفلـــةِ الزمـــان وشـــادا

أنـــتَ جلَّادُنـــا فـــلا تـــنسَ أنَّـــا قـــد لَبِســـنا علـــى يـــديكَ الحِـــدادا

ومن خلال هذه القصيدة الخالدة استطاع حافظ أن يوجه ضربات لاذعة إلى المحتلين، الذين لم يراعوا في أبناء الوطن كرامة ولا إنسانية، وجاءت كلمات النص معبرة عن حب الشاعر لوطنه، وانتمائه لأمته، واعتزازه بهويته، ومصورة ما حدث لأبناء مصر من ظلم الاحتلال واستبدادهم، وقد أظهرت هذه القصيدة "مبلغ الظلم البريطاني ومبلغ هوان المصري في نظر الاحتلال، وقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوي على هذا الظلم حملات اهتزَّت لها أركانه، كما حمل على الضعف الذي كان من أسباب استفحال هذا الظلم؛ فكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بأسباب النهوض والقوة في محاربة الاحتلال"[2]، ومن ثم يمكن القول بأن

(١) الديوان، صـ ٣٣٥.

(٢) ينظر: عبد الرحمن الرافعي، (شعراء الوطنية في مصر...)، صـ ١٠٢.

الإبداع الشعري قادر على تعزيز الانتماء إلى الوطن، وتمكين حبه في نفوس أبنائه، وبعث الأمل في نفوس المنتمين إليه، لا سيما في زمن تكالب فيه الأعداء على خيراته، واستولوا على مقدراته.

ومن هنا نعلم أن شعر حافظ في المجتمع جاء "صورة من طبعه ومن نفسه، يحس بآمال الأمة وآلامها، وتصور له هذه وتلك بصورة مصرية صميمة في مصريتها، ويعبر عنها بلسانه المصري دون أن يجد في ذلك عناء ولا عسرًا؛ لأنه لا يتناول الصورة من بعيد، بل يتناولها من قلبه وإحساسه. وهو في شعره هذا جزل اللفظ، رصين الأسلوب، يتخير الألفاظ، ويصطنع التعبير الذي يملأ النفس حماسًا، ويثير الخواطر، ويُلهب الشعور"[1]، وعلى هذا النمط جاءت تجارب حافظ إبراهيم معبرة عن حبه للوطن، ومدى اعتزازه بهويته المصرية، ولا غرابة في ذلك فهو شاعر النيل بحق، وشاعر الوطن بصدق، جعل من قصائده وسيلة للدفاع عن حق مصر في الحرية والاستقلال، ووسيلة لتعزيز الهوية في قلوب أبناء الأمة؛ فكانت قصائده سيفًا على أعدائها، وسلاحًا في يد أبنائها، يستنهض به عزائمهم، ويشحذ به نفوسهم، ويقوي به شوكتهم، ويمكن به هويتهم.

ثالثًا: دفاعه عن المجتمع

من المعلوم أن علاقة الأدب بالمجتمع كعلاقة الجزء بالكل؛ إذ الأدب صورة للمجتمع الذي يعيش فيه، يعبر عن أحداثه، ويصور قضاياه الجوهرية، ويؤرخ

(١) أحمد الطاهر، (محاضرات عن حافظ إبراهيم حياته وشعره)، صـ ٣٤، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٤م.

لأحداثه الإنسانية، ويعالج السلبيات، ويعمل على نشر الإيجابيات، والأديب الحق هو الذي يعبر عن روح المجتمع، ويجعل أدبه وسيلة لغرس القيم الأخلاقية، وبث الروح الإيجابية، وبعث الأمل، ونزع الألم من قلوب الناس في بيئته؛ وذلك لأنه اجتماعي بطبعه، ليس منغلقًا على نفسه، ولا منكفئًا على ذاته، وقد كان الشعر العربي منذ عصوره الأولى صاحب رسالة اجتماعية، فقد صوّر الشعراء قديمًا وحديثًا الحياة التي عاشها الناس في البدو والحضر، "فالشعر العربي لم ينسحب ولم يهرب من الحياة، بل كان يرافقها في السلم والحرب، وكان الشاعر يرى من واجبه أن يشارك في أحداث مجتمعه"(١).

ومن يطالع ديوان حافظ إبراهيم يجد أنه شاعر اجتماعي بطبعه، يدافع عن قضاياه، ويعبر عن همومه، ويصور آمال الناس، ويجسد آلامهم، ويجعل من شعره وسيلة للتعبير عن مآسيهم وأحزانهم، حتى كان بحق شاعرًا "يستوحي مضمون أعماله من ظروف المجتمع الذي يعيش فيه، ويتأثر بأحواله وملابساته في أثناء قيامه بعملية الإبداع الفني؛ ذلك أن الأديب -وهو الضمير الواعي لمجتمعه- لا بد وأن يبلور وجدانه، ويضع يده على نقاط الضعف والقوة، ويرى ما لا يراه الشخص العادي"(٢)، ومن ثم كان شعر حافظ ترجمة لضمير الشعوب، وصوتًا لأفراحهم وأحزانهم، وترجمانًا لمشاعرهم وأحاسيسهم، وهو إلى جانب كونه شاعرًا وطنيًا " كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق في جهادهم للحرية؛ إذ الأخلاق قوام

(١) د/ شوقي ضيف (في النقد الأدبي) صـ ١٩٤، دار المعارف، ط/ ٥ بدون تاريخ.

(٢) د/ نبيل راغب (التفسير العلمي: للأدب نحو نظرية عربية جديدة) صـ ١٣٩، المركز الثقافي الجامعي، بدون تاريخ.

الجهاد الصحيح، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حد التقريع في مخاطبته لبني وطنه، ومجابهتهم بالحق الصريح"[1]، وقد دافع حافظ عن المجتمع بكل ما أوتي من قوة في الإفصاح والبيان؛ فجاءت تجاربه الشعرية نفثات وجدانية تعبر عن خوفه الشديد على بيئته، وحرصه الكبير على أبناء مجتمعه؛ ويمكن الحديث عن هذا الجانب في شعر حافظ من خلال صورتين، كما يأتي:

الصورة الأولى: حديثه عن الفقراء والبؤساء

عاش حافظ إبراهيم في مجتمع متعدد الطوائف والطبقات، فهناك قلة من الأغنياء الذين يمتلكون الأموال الطائلة، عاشوا حياة الترف والبذخ، وهناك السواد الأعظم من أبناء المجتمع يعاني من الفقر والحرمان، ويعيش في اضطهاد وذل وهوان؛ وذلك نتيجة الاحتلال الذي كبل الشعوب العربية بالفقر والحاجة، وكبت حرياتهم، وكمم أفواههم، فكان الشعر وسيلة لإبراز صوت الشعوب، وترجمانًا لمعاناتهم، وتصويرًا لآلامهم، ومن ثم كان جل الشعراء مشاركين في حركات الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والثقافي، يحثون الناس على الخير، ويرشدونهم إلى البر، ويدعون إلى الفضائل، وينفرون من الرذائل، وقد جعل حافظ من شعره سجلًا تاريخيًا لما يقع في المجتمع من كوارث وأحداث، ما دامت المشاركة بالشعر إسهامًا في قضية اجتماعية تمس المواطنين، "والحق أن حافظًا كان بطل هذا الميدان، فكم له من شعر أنشده في حفلات أُقيمت لجمع تبرعات للمنكوبين، أو في افتتاح مؤسسة للمشرَّدين،

(١) ينظر: عبد الرحمن الرافعي، (شعراء الوطنية في مصر...)، صـ ١٠٢.

وكم له من قصائد في الحث على تخفيف مصاب المصابين، ومسح دموع الباكين"[1]، ومن ذلك قصيدته التي قالها في حريق (ميت غمر) ١٩٠٢م، والتي استطاع أن يرسم بها لوحة فنية يكسوها الألم، ويشع منها الحزن والأسى؛ نتيجة ما حل بأهل هذه المدينة، يقول حافظ:[2]

سائِلوا اللَيلَ عَنهُمُ وَالنَهارا كَيفَ باتَت نِسائُهُم وَالعَذارى

كَيفَ أَمسى رَضيعُهُم فَقَدَ الأُم م وكيف اصطلى مع القوم نارا

كَيفَ طاحَ العَجوزُ تَحتَ جِدارٍ يَتَداعى وَأَسقُفٍ تَتَجارى

رَبِّ إِنَّ القَضاءَ أَنحى عَلَيهِم فَاكشِفِ الكَربَ وَاحجُبِ الأَقدارا

وَمُرِ النارَ أَن تَكُفَّ أَذاها وَمُرِ الغَيثَ أَن يَسيلَ اِنهِمارا

أَينَ طوفانُ صاحِبِ الفُلكِ يَروي هَذِهِ النارَ فَهيَ تَشكو الأُوارا

في هذه الأبيات يتساءل الشاعر بحسرة ولوعة عما حلَّ بأهل المدينة من حريق ودمار، كيف باتت نساؤهم والعذارى في ديارهم بلا مأوى ولا سند؟ وكيف أمسى رضيعهم فاقدًا أمه؟ وكيف اصطلى نارًا لا ترحم صغيرًا ولا كبيرًا؟! ثم يلجأ حافظ إلى ربه يناجيه ويرجوه أن يكشف الكرب عنهم، وأن يرحم ضعفهم، وأن يأمر الغيث أن يكف أذى النار عنهم. ولا يخفى أن في هذه الأبيات مشاركة وجدانية وتصويرًا دقيقًا، وإحساسًا عميقًا، يرسم لنا لوحة فنية رائعة؛ حيث "أجاد حافظ في تصوير هذا

(١) د/ أحمد هيكل، (تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية)، صـ ١٣٢-١٣٣، دار المعارف، الطبعة السادسة ١٩٩٤م.

(٢) الديوان، صـ ٢٥٠.

الحريق المروع الذي راح ضحيته كثير من النساء والفتيات العذارى، والأطفال الرضع، والشيوخ الذين أقعدهم العجز عن الفرار؛ بغية النجاة، فسقطوا تحت الجدران المتداعية والأسقف المتهاوية، وأجاد في تصوير النيران وما أحدثته في المدينة"[1]، فأضاءت ظلمة الليل بشررها المتطاير، وأحاطت المدينة بالبؤس والنحس من كل جانب، وحولت سعادتها إلى شقاء، ونعيمها إلى بأساء، وأتت على كل شيء، ولم ترحم طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا.

ثم يُكمل الشاعر هذه اللوحة الفنية الرائعة، ويجيد في تصوير هذه المأساة تصويرًا يرقق القلوب، ويدمع العيون، فيقول:[2]

أشعلتْ فحمةُ الدَّياجي فباتتْ ... تَملأُ الأرضَ وَالسَماءَ شَرارا
غَشِيَتهُم وَالنَحسُ يَجري يَمينًا ... وَرَمَتهُم وَالبُؤسُ يَجري يَسارا
فَأَغارَت وَأَوجُهُ القَومِ بيضٌ ... ثُمَّ غارَت وَقَد كَستهُنَّ قارا
أَكَلَت دورَهُم فَلَمّا اِستَقَلَّت ... لَم تُغادِر صِغارَهُم وَالكِبارا
أَخرَجَتهُم مِنَ الدِيارِ عُراةً ... حَذَرَ المَوتِ يَطلُبونَ الفِرارا
يَلبَسونَ الظَلامَ حَتّى إِذا ما ... أَقبَلَ الصُبحُ يَلبَسونَ النَهارا
حُلَّةً لا تَقيهِمُ البَردَ وَالحَر ... رَ وَلا عَنهُمُ تَرُدُّ الغُبارا

استطاع حافظ في هذه الأبيات أن ينقل لنا صورة مجسدة لما حدث لأهل مدينة

(١) د/ حسن السيد خضر، (شعر حافظ الاجتماعي وآراء النقاد فيه)، صـ٣٢٤، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، عدد ١١، مجلد ٢ سنة ١٩٩٢م.

(٢) الديوان، صـ ٢٥١.

ميت غمر؛ حيث يبين مدى ذعر الناس وخوفهم، وكيف حوّل الحريق حياتهم إلى مأساة يندى لها الجبين، وتبكي لها العيون، وتستثار لها قرائح الشعراء، كما استطاع الشاعر أن يستحث الخواطر، ويثير النفوس، عن طريق التصوير المعبر، والخيال العاطفي المؤثر، ومن هنا يمكن القول بأن حافظًا كان "شاعرًا اجتماعيًا عاطفيًا، يُحسن تصوير ما في نفسه وما في نفوس الناس، وبضاعته في ذلك هذه الإحساسات التي يغلي بها صدره، وهذه الشاعرية التي اكتسبها بطبعه، وهذه الجزالة اللغوية التي تيسرت له بمرانه ودرسه"[1]، وهذا الخيال المحلق في فضاء المجتمع ناقلًا مآسي الناس وأحزانهم، ومعبرًا عن أفراحهم وأحزانهم.

ثم يخاطب الشاعر في هذه القصيدة الأغنياء والأثرياء الذين يرتدون أفخر الثياب، ويستدر عطفهم، ويستحث كرمهم؛ لكي يقفوا مع هؤلاء المنكوبين، فيقول:[2]

أيها الرافلون في حُلل الوَشْـ ـي يَجُرُّون للذيولِ افتخارا
إِنَّ فَوقَ العَراءِ قَومًا جِياعًا يَتَوارَونَ ذِلَّةً وَاِنكِسارا
أَيُّهَذا السَجينُ لا يَمنَعُ السِجـ ـنُ كَريمًا مِن أَن يُقيلَ العِثارا
مُر بِأَلفٍ لَهُم وَإِن شِئتَ زِدها وَأَجِرهُم كَما أَجَرتَ النَصارى

ولم يكتف الشاعر بالحديث عن هذا الحريق وما نتج عنه من مأساة مروعة، وكوارث مفزعة، بل إنه تطرق في قصيدته للحديث عن طبقات المجتمع المصري، وجعل من شعره وسيلة للحديث عن هذه الطبقية "التي يعاني منها عامة الشعب،

(١) أحمد الطاهر، (محاضرات عن حافظ إبراهيم حياته وشعره)، صـ ٣٦.

(٢) الديوان، صـ ٢٥١.

فهناك الأغنياء المُترفون، الذين يسرفون في الاستمتاع بخيرات الشعب، فيبذرون الذهب يمينًا وشمالًا، ويسهرون الليالي الطوال يشربون الخمر، ويلعبون الميسر حتى الـ صباح، بينما أهل (ميت غمر) لا يجدون المأوى ولا الملبس الذي يقيهم حر الشمس وبرد الليل"[1]، فسبحان من قسم الحظوظ، وجعل من الناس شقيًا وسعيدًا، فهذا يتغنَّى فرحًا وسعادةً، وهذا يبكي على حاله، ويندب حظه وسوء عيشه، يقول حافظ:[2]

قَد شَهِدنا بِالأَمسِ في مِصرَ عُرسًا ... مَلَأَ العَينَ وَالفُؤادَ اِبتِهارا[3]

سالَ فيهِ النُضارُ حَتّى حَسِبنا ... أَنَّ ذاكَ الفِناءَ يَجري نُضارا

باتَ فيهِ المُنَعَّمونَ بِلَيلٍ ... أَخجَلَ الصُبحَ حُسنُهُ فَتَوارى

يَكتَسونَ السُرورَ طَورًا وَطَورًا ... في يَدِ الكَأسِ يَخلَعونَ الوَقارا

وَسَمِعنا في مَيتِ غَمرٍ صِياحًا ... مَلَأَ البَرَّ ضَجَّةً وَالبِحارا

جَلَّ مَن قَسَّمَ الحُظوظَ فَهَذا ... يَتَغَنّى وَذاكَ يَبكي الدِيارا

رُبَّ لَيلٍ في الدَهرِ قَد ضَمَّ نَحسًا ... وَسُعودًا وَعُسرَةً وَيَسارا

---

(١) د/ حسن السيد خضر، (شعر حافظ الاجتماعي وآراء النقاد فيه)، صـ٣٢٦.

(٢) الديوان، صـ ٢٥١-٢٥٢.

(٣) يريد: عجبًا، يقول محقق الديوان: "ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة هذا اللفظ بهذا المعنى. وهذا العرس الذي يشير إليه الشاعر هو عرس زواج الأمير حيدر رشدي فاضل بك من كريمة علي فهمي باشا، وقد أقيم مهرجان عظيم بدار علي فهمي باشا، مكث ثلاث ليال..."، ديوان حافظ، هامش ٦ من صـ٢٥١؛ ومن ثم أرى أن الصواب هو قوله: ملأ العين والفؤاد انبهارًا...؛ لأن كلمة (انبهار) مناسبة للمعنى، ونائية عن الغريب المبتذل، الذي يبتعد عنه شعر حافظ غاية البعد.

وهكذا استطاع حافظ إبراهيم أن يجعل من شعره وسيلة للحديث عن مآسي الناس وأحزانهم، وأداة للتعبير عن آلامهم وآمالهم، وذلك في لغة سهلة، وأسلوب معبر، وصور بلاغية وبيانية أخاذة مؤثرة، وكانت هذه سمة غالبة في معظم تجارب حافظ؛ حيث كان يمتلك قدرة فنية في تصوير المواقف المحزنة، ونقل المشاهد المؤثرة، ووصف المشاهد الحزينة والمناظر المبكية، ويمكن الاستشهاد على ذلك بقصيدة له يتحدث فيها عن فتاة أنهكها الحزن، وسيطر عليها الجوع والبؤس، يقول الشاعر في وصف هذه الصورة، وذلك في مناسبة يوم رعاية الأطفال:[1]

شَبَحًا أَرى أَم ذاكَ طَيفُ خَيالِ ... لا بَل فَتاةٌ بِالعَراءِ حِيالي

أَمسَت بِمَدرَجَةِ الخُطوبِ فَما لَها ... راعٍ هُناكَ وَما لَها مِن والي

حَسرى تَكادُ تُعيدُ فَحمَةَ لَيلِها ... نارًا بِأَنّاتٍ ذَكَينَ طِوالِ

ما خَطبُها عَجَبًا وَما خَطبي بِها ... ما لي أُشاطِرُها الوَجيعَةَ ما لي

دانَيتُها وَلِصَوتِها في مَسمَعي ... وَقعُ النِبالِ عَطَفنَ إِثرَ نِبالِ

وَسَأَلتُها: مَن أَنتِ وَهيَ كَأَنَّها ... رَسمٌ عَلى طَلَلٍ مِنَ الأَطلالِ

فَتَمَلمَلَت جَزَعًا وَقالَت: حامِلٌ ... لَم تَدرِ طَعمَ الغَمضِ مُنذُ لَيالي

قَد ماتَ والِدُها وَماتَت أُمُّها ... وَمَضى الحِمامُ بِعَمِّها وَالخالِ

وَإِلى هُنا حَبَسَ الحَياءُ لِسانَها ... وَجَرى البُكاءُ بِدَمعِها الهَطّالِ

فَعَلِمتُ ما تُخفي الفَتاةُ وَإِنَّما ... يَحنو عَلى أَمثالِها أَمثالي

(١) الديوان، صـ ٢٧٥-٢٧٦.

يحكي لنا حافظ في هذه القصيدة قصة من واقع الحياة اليومية التي يمر بها كثير من الفقراء، وهي قصة لفتاة أنهكها الجوع، وأنحلها الفقر، وأصبحت نحيفة الجسم، هزيلة البطن، خائرة القوى، حتى أشبهت طيف الخيال، رآها الشاعر تتعثر الخطى، وقد أحاطت بها نوائب الأيام، وأثقلت ظهرها كوارث الزمان، فلا تجد قلبًا يحنو عليها، ولا معينًا يحمل همها، ولا يدًا تمسح دمعها، فنطلق من قلبها زفرات محرقة، تضيء ليلها المظلم! وهنا يتساءل الشاعر: ما خطبها؟ وما شأني بها؟ ولماذا أشاطرها أحزانها؟ ثم يدنو منها، ويرهف سمعه مصغيًا إليها؛ فإذا صوتها كوقع النبال على قلبه وأذنه، ثم يسألها: من أنت؟ وهي نحيلة الجسم، منهكة القوى، تشبه الطلل البالي، فأخبرته بعد أن تململت جزعًا وحزنًا أنها لم تذق طعم النوم منذ ليال طوال، وأنها يتيمة قد مات والدها وأمها وعمها وخالها؛ فلم تجد قلبًا يحنو عليها، ولا يدًا تمتد بالإحسان إليها، وإذ بها يحتبس نفسها، ويسكت لسانها، وينهمر الدمع من عينها، ويحل البكاء محل الكلام! وهنا يعلم حافظ ما تخفيه الفتاة من مأساة الحزن، وغصات الفقر، وإنما يحنو على أمثالها أمثال الشاعر من ذوي القلوب الرحيمة، والعواطف الجياشة، التي تحس بآلام الناس، وتشعر بما يعانونه من هموم وأحزان.

الصورة الثانية: نقد سلبيات المجتمع

من المعلوم أن الأدب لا ينفك عن المجتمع، ولا ينفصل عن الواقع؛ لأن صورة المجتمع نطالعها في أدبه شعرًا ونثرًا، والأديب الناجح هو المتفاعل مع قومه، والمعبر عن بيئته، والناطق باسم مجتمعه، يصور ما فيه، ويعبر عن القصور الذي يعتريه، وينقد سلبياته، ويعمل على نشر إيجابياته. ومعلوم كذلك أن الأخلاق الكريمة هي أساس المجتمع، فلا مجتمع بلا أخلاق، ولا قيمة لبيئة فسدت أخلاقها، وتفككت جميل صفاتها، والمجتمع المصري في عهد حافظ "كان يعاني من الأخلاق الفاسدة، فقد استشرت فيه بعض الخصال الذميمة؛ نتيجة الاحتلال الإنجليزي البغيض، وضعف الوازع الديني في النفوس، وانتشار الجهل بين المواطنين؛ لذلك نشط رواد الإصلاح من أبناء مصر المخلصين في جميع الميادين السياسية والتعليمية والاجتماعية"، وكان الشعر العربي في مقدمة هذه الحركة الإصلاحية، التي تأخذ بأيدي المجتمع إلى الصواب، وتهديه إلى الرشاد، وتحثه على الأخلاق القويمة، والصفات الكريمة.

وشاعرنا حافظ إبراهيم كان رائدًا في هذا الميدان؛ حيث أدلى بدلوه في إصلاح المجتمع ونقده، وسخر موهبته في إبراز دور وطنه عليه، فدعا إلى تهذيب الأخلاق، وتقويم السلوكيات، ونبذ العادات السيئة، والتقاليد الرديئة، وكان هذا نابعًا من حبه لوطنه، وعشقه الدفين لمصر التي تمكن حبها في قلبه، ولا ريب في ذلك فهو القائل:[1]

كَم ذا يُكابِدُ عاشِقٌ وَيُلاقي ... في حُبِّ مِصرَ كَثيرَةِ العُشّاقِ

إِنّي لَأَحمِلُ في هَواكِ صَبابَةً ... يا مِصرُ قَد خَرَجَت عَنِ الأَطواقِ

(١) الديوان، صـ ٢٧٩.

لَهفـــي عَلَيـــكِ مَتـــى أَراكِ طَليقَـــةً ... يَحمـــي كَـــريمَ حِمـــاكِ شَـــعبٌ راقـــي
كَلِـــفٌ بِمَحمـــودِ الخِـــلالِ مُتَـــيَّمٌ ... بِالبَـــذلِ بَـــينَ يَـــدَيكِ وَالإِنفـــاقِ

قال حافظ هذه القصيدة في حفل أقيم بمدرسة البنات بورسعيد، وفيها كثير من القيم الاجتماعية الراقية، وكثير من الأخلاق الفاضلة، التي حث عليها الشاعر، ودعا أبناء الشعب إلى التمسك بها، وفيها يتحدث عن مدى إعجابه بالأخلاق، وشدة تمسكه بها فيقول:(١)

إِنّـــي لَتُطرِبُنـــي الخِـــلالُ كَريمَـــةً ... طَـــرَبَ الغَريـــبِ بِأَوبَـــةٍ وَتَلاقـــي
وَتَهُـــزُّني ذِكـــرى المُـــروءَةِ وَالنَـــدى ... بَـــينَ الشَـــمائِلِ هِـــزَّةَ المُشـــتاقِ
مـــا البابِلِيَّـــةُ في صَـــفاءِ مِزاجِهـــا ... وَالشَـــربُ بَـــينَ تَنـــافُسٍ وَسِـــباقِ
وَالشَـــمسُ تَبـــدو في الكُئـــوسِ وَتَختَفـــي ... وَالبَـــدرُ يُشـــرِقُ مِـــن جَبـــينِ الســـاقي
بِأَلَـــذَّ مِـــن خُلُـــقٍ كَـــريمٍ طـــاهِرٍ ... قَـــد مازَجَتـــهُ سَـــلامَةُ الأَذواقِ
فَـــإِذا رُزِقـــتَ خَليقَـــةً مَحمـــودَةً ... فَقَـــدِ اِصـــطَفاكَ مُقَسِّـــمُ الأَرزاقِ

ولا يخفى أن في هذه الأبيات دعوة صريحة إلى تقويم المجتمع، وإصلاح الوطن من حيث بث الأخلاق الطيبة، والصفات العالية؛ وفي هذا إشارة إلى أن رسالة الشعر قد تكون سامية إذا سخرها صاحبها في خدمة الوطن، وتقويم المجتمع، وبعث الأمل في نفوس أبنائه. وفي هذا السياق يتحدث الشاعر عن الأخلاق الفاسدة، والصفات المذمومة بين أبناء المجتمع، ويحمل على أصحابها حملة شعواء، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عن غيهم، وينتهوا عما هم فيه من

(١) الديوان، صـ ٢٨٠.

فساد أخلاقهم، وسوء صنيعهم، وذلك حيث يتعرض لموقف العلماء الدجالين الذين لم يسخروا علمهم لخدمة وطنهم، وإنما استغلوه في الوقيعة بين الناس، وإثارة الفتن والضغينة والأحقاد في قلوبهم نحو بعضهم، وهؤلاء العلماء غير العاملين بعلمهم يتظاهرون بأنهم أهل ورع وتقوى، وفي الحقيقة هم منافقون مخادعون، يقول حافظ مصورًا هذا المعنى:(١)

كم عالمٍ مدَّ العلومَ حبائلًا ... لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه ... لمكيدةٍ أو مستحِلٍ طلاقِ
يمشي وقد نُصِبَتْ عليه عمامةٌ ... كالبرج لكن فوق تَلِّ نفاق
وطبيبِ قومٍ قد أحلَّ لطبه ... ما لا تُحِلُّ شريعةُ الخلّاقِ
قتلَ الأجنَّةَ في البطون وتارةً ... جمع الدوانقَ من دمٍ مهراقِ
أغلى وأثمنُ من تجاربِ علمه ... يوم الفخارِ تجاربُ الحلاقِ
وأديبِ قوم تستحقُ يمينُهُ ... قطعَ الأناملِ أو لظى الإحراقِ
يلهو ويلعبُ بالعقولِ بيانُهُ ... فكأنّه في السحر رُقيةُ راقِ
في كفّهِ قلمٌ يمُجُّ لُعابُه ... سُمًا وينفُثُهُ على الأوراقِ
يردُ الحقائقَ وهي بيضٌ نُصَّعُ ... قدسيةٌ عُلويّةُ الإشراقِ
فيردُّها سودا على جنباتها ... من ظُلمةِ التمويه ألفَ نطاقِ
عريتْ عن الحق المطهَّر نفسُهُ ... فحياته ثِقَلٌ على الأعناقِ

في هذه الأبيات يصور حافظ الواقع الاجتماعي المتردي والمنغمس في الأخلاق السيئة

(١) السابق، صـ ٢٨٠-٢٨١.

التي لم تترك طائفة من أبناء المجتمع، فقهاء وأطباء وأدباء، الجميع انسلخ من مهمته ووظيفته، وأخذ يلهث وراء النفاق والخداع والشقاق، بزعم المدنية والتحضر، وعلى هذه الوتر الحساس، والنقد اللاذع لسلبيات المجتمع، وآفات الناس، يتحدث الشاعر عن طائفة أخرى من أبناء المجتمع المصري، وهم الأطباء الجشعون، الذين تناسوا رسالتهم الإنسانية، واستولى على قلوبهم حب الدنيا، وجمع المال بشتى الوسائل الدنئية، فقتلوا الأجنة في بطون أمهاتها، واستحلوا دماء الأبرياء من أبناء مصر مخالفين بذلك شريعة الله ﷻ، ونلاحظ أن حافظًا لم يترك رفقاءه من الأدباء والشعراء، بل توجه إليهم بالنقد اللاذع والهجوم الشرس؛ "لأنهم لم يلتزموا صدق الكلمة في فنهم، بل شوهوا الحقائق، وطمسوا معالمها؛ استجابة لهوى نفوسهم، أو مطمع حزبهم أو طائفتهم"[1]، وهكذا أدرك حافظ إبراهيم أهمية رسالته في توجيه مجتمعه إلى قيم فاضلة، وأخلاق راقية.

ومن خلال ما مر يمكن القول بأن حافظ إبراهيم كان شاعرًا ينطق باسم المجتمع، ويدرك قيمة الشعر في التعبير عن مآسي الناس وأحلامهم، وأفراحهم وأحزانهم، ومن هنا سخر موهبته الفنية في إذكاء الروح الوطنية، وتعزيز الهوية المصرية في نفوس أبناء الوطن؛ حتى ينشأ جيل محب لوطنه، معتز بهويته، يدافع عن وطنيته بكل ما أوتي من قوة.

(١) د/ حسن أحمد الكبير (تطور القصيدة الغنائية في العصر الحديث)، صـ ٨٥، دار الفكر العربي بدون تاريخ.

المبحث الثاني

غَرْسُ القيم الوطنية

عاش الأدب العربي منذ صوره الأولى رديفًا للمجتمع، يعبر عنه، ويؤرخ أحداثه، ويصور ما فيه من قيم أخلاقية، وسلوكيات تربوية؛ حتى يحثَّ الناس عليها، ويدعوَهم إليها، والأديبُ الحقيقي هو الذي "يستطيع أن يؤثر في مجتمعه، وأن يكسب رضاه، ووسيلته في ذلك أن يحدثهم فيما يعنيهم، ويخاطبهم فيما يعيشون ويشعرون، دون أن يخضع لإرادة هذا المجتمع، بل ربما استطاع تحقيق ذلك وهو يقف معارضًا لواقعه الخارجي"[(١)]، وقد يجعل من أدبه وسيلة لتغيير سلوك خاطئٍ، أو خلق منبوذ؛ وبذلك يكون الإبداع الأدبي أداة أساسية في نشر القيم الأخلاقية، والفضائل التربوية، ومن ثم نفهم أن الهوية الوطنية هي "الشعور بالاعتزاز القوي، والانتماء إلى الأرض والتاريخ المشترك، وإلى الوطن الذي يحمي الكرامة ويوفر الإحساس بالأمن والأمان، ويضمن حق التمتع بالعدالة الاجتماعية وبكل الحقوق المتعارف عليها عالميًا"[(٢)]، وهوية الإنسان الدينية والوطنية هي كينونته، وأساس وجوده، يحنُّ إليها إن غاب عنها، ويتألم لألمها، ويفرح لفرحها، ولا يرضى لها هوانًا أو ذلًا.

وقد مر بنا أن حافظ إبراهيم شاعر اجتماعي، يعبر عن قضايا الناس، ويتفاعل مع تطلعاتهم وآمالهم، وأحزانهم وآلامهم، جعل من شعره وسيلة أساسية للهوية المصرية، يغرس من خلاله قيمًا أخلاقية، وتعاليم تربوية، من شأنها أن يشحذ الهمم،

---

(١) ينظر: د/ محمد محمد عليوة (فصول في نظرية الأدب) صـ ٦٦، دار الهاني للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) فاطمة موسى، (اللغة العربية وإشكاليات الهوية)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، بحث منشور بموقع المجلة الإلكتروني بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٢١م، برابط / https: / /www.hnjournal.net

وتستثير العزائم، لا سيما وقد عاش حافظ في فترة زمنية متأججة بال صراع، ومشحونة بالنضال الوطني ضد العدو الخارجي، وقد كان الشاعر سيفًا قويًا في يد الأدباء والشعراء، يعبرون من خلاله عن قضايا أمتهم، ويـ صورون تطلعات مجتمعهم، وآمال الناس في حريتهم واستقلالهم، وحافظ من هؤلاء الشعراء الذين جعلوا من شعرهم وسيلة للدفاع عن وطنهم، وسلاحًا في وجه عدوهم؛ حيث "اتجه بشعره إلى تاريخ وطنه م صر، يستعرض مواكبه، ويعدد مفاخره، وكأنه يريد أن يستنقذ مواطنيه من مخالب الاحتلال الغاشم، ويبعثهم بعثًا جديدًا يتلاءم وأمجاد أسلافهم، الذين كانوا يستطيلون على الشعوب، والذين أورثوا الإنسانية تراثهم الحضاري العظيم"[1]، وفي هذا المبحث إطلالة على شعر حافظ إبراهيم في هذا الشأن، لنعرف كيف سخّر هذه الموهبة الأدبية في غرس القيم الوطنية، وبعث الروح المعنوية في نفوس أبناء م صر، وذلك من خلال صورتين، كما يأتي:

الصورة الأولى: التغنِّي بحبِّ الوطن

من المعلوم أن بين الأدب والوطن شغفًا لا ينتهي؛ حيث اتخذ الأدباء من إبداعهم وسيلة ثرةً يغذون بها حبهم لوطنهم، وتعلقهم بهويتهم، وبالشعر يتغنون بأمجاد الوطن، ويعبرون عن روح الانتماء إليه، وكان حافظ إبراهيم رائدًا في هذا الميدان، يـ صول فيه بتجاربه الشعرية ويجول، ويبدع في وصف حبه لوطنه، وغرس قيم هويته، ومن أبرز القـ صائد التي يمكن الاستشهاد بها تلك التجربة التي يبوح فيها بحب م صر والشام، ويـ صور بها لواعجه القلبية، وخوالجه النفسية، واعتزازه بوطنه، وتعلقه

(١) د/ شوقي ضيف (فصول في الشعر ونقده)، صـ، مكتبة دار المعارف- القاهرة، ط/ ٤ بدون تاريخ.

ببيئته وقوميته، والتي يقول في مطلعها: (١)

لِمِصرَ أَم لِرُبوعِ الشامِ تَنتَسِبُ		هُنا العُلا وَهُناكَ المَجدُ وَالحَسَبُ
رُكنانِ لِلشَرقِ لا زالَت رُبوعُهُما		قَلبُ الهِلالِ عَلَيها خافِقٌ يَجِبُ
خِدرانِ لِلضادِ لَم تُهتَك سُتورُهُما		وَلا تَحَوَّلَ عَن مَغناهُما الأَدَبُ
أُمُّ اللُغاتِ غَداةَ الفَخرِ أُمُّهُما		وَإِن سَأَلتَ عَنِ الآباءِ فَالعَرَبُ
أَيَرغَبانِ عَنِ الحُسنى وَبَينَهُما		في رائِعاتِ المَعالي ذَلِكَ النَسَبُ
وَلا يَمُتّانِ بِالقُربى وَبَينَهُما		تِلكَ القَرابَةُ لَم يُقطَع لَها سَبَبُ

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات جموع الناس -في هذا المحفل الذي أقيم لتكريم جماعة من السوريين- أن يتنسبوا إلى مصر أو إلى ربوع الشام فكلاهما يمثلان الحسب والمجد والعلا، وكلاهما ركنان للشرق العربي المسلم، وخدران للغة العرب، التي هي أم اللغات، وفخر الألسنة، وهذان الخدران لا يتحول أحدهما عن لغة الأدب التي تمثل الشرف والرفعة؛ لأنهما ينتسبان إلى العرب الأمجاد، الذين رفعوا راية الدين، وسادوا بها البلاد، وانقاد لهم العباد، ثم يتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن الوَحدة بين البلاد العربية، وهو من خلال هذا الحديث يغرس قيمة عظيمة وهي أن الأمة العربية والإسلامية أمة واحدة مهما تباعدت أماكنها، وتباينت أشكال أبنائها، يقول حافظ: (٢)

(١) الديوان، صـ٢٦٨- ٢٦٩.

(٢) السابق، صـ٢٦٩.

إِذا أَلَمَّـــت بِـــوادي النيـــلِ نازِلَـــةٌ ... باتَـت لَهـا راسِياتُ الشـامِ تَضـطَرِبُ
وَإِن دَعـــا في ثَـــرى الأَهـــرامِ ذو أَلَـــمٍ ... أَجابَـــهُ في ذُرا لُبنـــانَ مُنتَحِـــبُ
لَـــو أَخلَـــصَ النيـــلُ وَالأُردُنُّ وُدَّهُمـــا ... تَصـــافَحَت مِنهُمـــا الأَمـــواهُ وَالعُشُـــبُ
بِـــالوادِيَينِ تَمَشّـــى الفَخـــرُ مِشـــيَتَهُ ... يَحُـــفُّ ناحِيَتَيـــهِ الجـــودُ وَالـــدَأَبُ
فَســـالَ هَـــذا سَـــخاءً دونَـــهُ دِيَـــمٌ ... وَســـالَ هَـــذا مَضـــاءً دونَـــهُ القُضُـــبُ

والمتأمل في تجارب حافظ يجد أن الروح الوطنية والتغني بحب مصر جلي وواضح في شعره؛ حيث تألق نورُ هذه الوطنية، ووجد التغني بحب الوطن في ديوانه قوةً تستمد من عشقه لوطنه الحماسة والصمود في وجه المحتلين، والجهاد والثورة على المنافقين والمخادعين، "وكان شعره معينًا لا ينضب من الكفاح الوطني، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويُلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبَّر عن هذه العاطفة الملتهبة" في قصائده الوطنية، وتجاربه المصرية، التي شاع فيها حب الوطن، ومن ذلك قوله في قصيدة قالها سنة ١٩٠٠م:[١]

مَتـــى أَرى النيـــلَ لا تَحلـــو مَـــوارِدُهُ ... لِغَيـــرِ مُرتَهِـــبٍ لِلَّـــهِ مُرتَقِـــبِ
فَقَـد غَـدَت مِصـرُ في حـالٍ إِذا ذُكِـرَت ... جـادَت جُفـوني لَهـا بِـاللُؤلُؤِ الرَطِـبِ
كَـأَنَّني عِنـدَ ذِكـري مـا أَلَـمَّ بِهـا ... قَـرمٌ تَـرَدَّدَ بَـينَ المَـوتِ وَالهَـرَبِ
إِذا نَطَقـتُ فَقـاعُ السِـجنِ مُتَّكَـأٌ ... وَإِن سَـكَتُّ فَـإِنَّ الـنَفسَ لَـم تَطِـبِ
أَيَشـتَكي الفَقـرَ غادينـا وَرائِحُنـا ... وَنَحـنُ نَمشـي عَلـى أَرضٍ مِـنَ الـذَهَبِ

(١) الديوان، صـ ٤٣٢.

يصف الشاعر في هذه الأبيات مدى حرصه على وطنه، وتعلقه به، وخوفه عليه؛ ولذلك يحن شوقًا إلى رؤية استقلاله، والعيش تحت هانئًا تحت ظلاله، ومن هنا يبث لواعج قلبه وغصات نفسه التي يكابدها ويعانيها نتيجة كبت الحرية في مصر تحت وطأة الاحتلال البغيض، ويتخيل حافظ نفسه كأنه -عندما يتذكر ما حل بمصر من المحتلين- سيد عظيم أو بطل شجاع تردد بين الموت والهرب؛ لأنه إذا نطق وتكلم عن المحتلين وظلمهم فإن مصيره السجن، وإن سكت وكبت جماح غضبه فإن نفسه لن ترضى، ولن تطيب، وهنا يتساءل في حسرة وألم: أيشتكي الفقرَ غادينا ورائحنا؟ والحال أننا نمشي على أرض من الذهب، وفي هذا إشارة إلى أن مقدرات الوطن الغالي قد استولى عليها أعداء مصر المحتلون، الذين لا ينتمون إلى مصر، ولا يعرفون قيمتها، ولا يقدرونها حق قدرها؛ ولا يعرف قيمة الوطن إلا من أحبه من شغاف قلبه، وعاش من أجله، وسخر حياته للدفاع عنه.

ويتغنى حافظ بحب مصر في تجربة أخرى تفيض عذوبة وجمالًا، وذلك في قوله في قصيدة قالها سنة ١٩٠٤م:[١]

أَيَجمُلُ بِالأَديبِ أَديبِ مِصرٍ ... بُكاءُ الطِفلِ أَرهَقَهُ الفِطامُ

وَيَصرِفُهُ الهَوى عَن ذِكرِ مِصرٍ ... وَمِصرٌ في يَدِ الباغي تُضامُ

عَدِمتُ يَراعَتي إِن كانَ ما بي ... هَوىً بَينَ الضُلوعِ لَهُ ضِرامُ

وَما أَنا وَالغَرامَ وَشابَ رَأسي ... وَغالَ شَبابِيَ الخَطبُ الجُسامُ

وَرَبّاني الَّذي رَبّى لَبيدًا ... فَعَلَّمَني الَّذي جَهِلَ الأَنامُ

(١) السابق، صـ٣٦٨-٣٦٩.

لَعَمــرُكَ مــا أَرِقــتُ لِغَيــرِ مِصــرٍ وَمــا لــي دونَهــا أَمَــلٌ يُــرامُ
ذَكَــرتُ جَلالَهــا أَيّــامَ كانَــت تَصــولُ بِهــا الفَراعِنَــةُ العِظــامُ
وَأَيّــامَ الرِجــالُ بِهــا رِجــالٌ وَأَيّــامَ الزَمــانُ لَهــا غُــلامُ

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن مهمة الأديب، وأنها تكمن في التغني بحب وطنه، والإشادة بمآثره، والحديث عن أمجاده وتاريخه المشرق؛ ولذلك يقسم حافظٌ أن الذي أرَّق وجدانه وأقضَّ مضجعه لم يكن تعلُّقٌ بليلى أو غرامٌ بعزة، وإنما هو حُبُّ مصر الغالية، والتغنِّي بماضيها العريق، وتاريخها المشرق، ومن ثم فليس له دونها أمل يرام، ويتجلى هذا الحب بقوة في قصيدته التي ألقاها في مدرسة البنات ببورسعيد سنة ١٩١٠م، والتي يبدؤها بقوله:(١)

كَــم ذا يُكابِــدُ عاشِــقٌ وَيُلاقــي في حُــبِّ مِصــرَ كَثيــرَةِ العُشّــاقِ
إِنّــي لَأَحمِــلُ في هَــواكِ صَــبابَةً يــا مِصــرُ قَــد خَرَجَــت عَــنِ الأَطــواقِ
لَهفــي عَلَيــكِ مَتــى أَراكِ طَليقَــةً يَحمــي كَــريمَ حِمــاكِ شَــعبٌ راقــي
كَلِــفٌ بِمَحمــودِ الخِــلالِ مُتَــيَّمٌ بِالبَــذلِ بَــينَ يَــدَيكِ وَالإِنفــاقِ

ومن التجارب المشهورة التي تغنى فيها الشاعر بحب مصر تلك القصيدة التي قالها حافظ على لسان مصر، وهي (مصر تتحدث عن نفسها)، وقد جاءت هذه التجربة نفثة روحية جسدت حب الوطن، وتجربة ثرية مثلت تاريخ مصر العريق، وحضارتها الزاهرة، ومجدها الضارب في أعماق الوجود البشري، والقصيدة في

(١) الديوان، صـ ٢٧٩.

مجملها حديث سردي ذكره على لسان وطنه الذي يحبه وينمتي إليه، وتعد هذه القصيدة من عيون الشعر في تجسيد الهوية الوطنية، وغرس القيم القومية، "وبهذه الشعلة المقدسة جاء حافظ إبرهيم منحة سماوية، خص الله بها قلب العروبة، ذخيرة حية، وسلاحًا مرهوبًا، وفرق بين سلاح وسلاح؛ فسلاح الميدان يعمل عمله في المعارك، وقد يذهب بددًا، أما هذا السلاح، سلاح التعبئة الروحية، سلاح الشاعر؛ فهو قوة رهيبة تخترق الحصار، وتنفذ إلى الصميم، وتخلد على مدى الأزمان"[1]، لا سيما وأن هذه القصيدة قالها الشاعر إبان الاحتلال الإنجليزي لمصر، وهي تجربة قوية تنمي القوى الروحية، وتُلفت أنظار الأمة إلى الغاية القصوى وهي استقلال مصر وتحريرها من قبضة المحتل، يقول حافظ في هذه القصيدة:[2]

وَقَفَ الخَلقُ يَنظُرونَ جَميعًا ... كَيفَ أَبني قَواعِدَ المَجدِ وَحدي
وَبُناةُ الأَهرامِ في سالِفِ الدَهـ ... ـرِ كَفوني الكَلامَ عِندَ التَحَدّي
أَنا تاجُ العَلاءِ في مَفرِقِ الشَر ... قِ وَدُرّاتُهُ فَرائِدُ عِقدي
أَيُّ شَيءٍ في الغَربِ قَد بَهَرَ النا ... سَ جَمالاً وَلَم يَكُن مِنهُ عِندي؟
فَتُرابي تِبرٌ وَنَهري فُراتٌ ... وَسَمائي مَصقولَةٌ كَالفِرِندِ
أَينَما سِرتَ جَدوَلٌ عِندَ كَرمٍ ... عِندَ زَهرٍ مُدَنَّرٍ عِندَ رَندِ

في هذه الأبيات يتحدث الشاعر على لسان مصر أنها أم الحضارات، ومهد الرسالات، وقد وقف الخلق جميعًا ينظرون إليها نظرة إعجاب وإكبار؛ إذ هي أول من وضعت أسس الحضارة

(١) محمد هارون الحلو، (حافظ إبراهيم شاعر القومية العربية)، صـ ٣٠، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) الديوان، صـ ٤٠٣.

منذ فجر التاريخ، وستظل الأهرامات شاهدة على عظمتها، ودليلًا على مكانتها، وهي كذلك تاج الشرق ودرته، ولا قيمة للشرق بدونها، ولو مصر ماتت؛ لذل الشرق كله؛ لأنها مصدر قوته، ودليل عظمته، ومنتهى مكانته، ولا شك أن كلَّ ما أبهر الناس وسَحَرَهم في بلاد الغرب فهو موجود في مصر، شاهدُ صدق على مكانتها العظيمة، ودليل حق على حضارتها العميقة؛ ترابها تبرٌ، ونهرها عذب فرات، وسماؤها مصقولة كالسيوف المهندة، فأينما سرت في أرضها، ومررت بين جنباتها؛ تجد أشجارًا مختلفة الألوان، طيبة الرائحة، كثيرة الثمار، كثيفة الظلال.

ثم يخاطب الشاعر أولئك الحاقدين من المحتلين وغيرهم ممن أنكروا مفاخرها، وجحدوا مآثرها، ويخبرهم بما لمصر من فضل عظيم، وتاريخ مشرق، فيقول على لسان مصر أيضًا:(١)

قُل لِمَن أَنكَروا مَفاخِرَ قَومي ... مِثلَ ما أَنكَروا مَآثِرَ وُلدي

هَل وَقَفتُم بِقِمَّةِ الهَرَمِ الأَكـ ... ـبَرِ يَوماً فَرَيتُمُ بَعضَ جُهدي؟

هَل رَأَيتُم تِلكَ النُقوشَ اللَواتي ... أَعجَزَت طَوقَ صَنعَةِ المُتَحَدّي؟

حالَ لَونُ النَهارِ مِن قِدَمِ العَهـ ... ـدِ وَما مَسَّ لَونَها طولُ عَهدِ

هَل فَهِمتُم أَسرارَ ما كانَ عِندي ... مِن عُلومٍ مَخبوءَةٍ طَيَّ بَردي؟

يخاطب الشاعر الحاقدين على مصر، والناكرين فضلها، والجاحدين قدرها قائلًا: هل وقفتم على قمة الهرم الأكبر؛ لكي تعرفوا بعض فضلي ومجدي؟ هل رأيتم النقوش التي اكتشفها أبناء جلدتكم شاهدةً على عظمتي، ودليل صدق على حضارتي وقوة عزيمتي؟ تلك إذن عظمة لا تضاهيها عظمة، وإجلال ما بعده إجلال. وهكذا استطاع حافظ أن يغرس قيمة الوطن وسمو مكانته في قلوب أبناء أمته، ومن هنا ندرك أن شاعرنا كان صادقًا في تصوير عاطفته،

(١) السابق، صـ ٤٠٤.

متعمقًا في تجسيد خوالجه؛ حيث تغنى بأمجاد هذا الوطن، بل وأسرف في إثارة المشاعر والأحاسيس تجاه حب الأوطان، والانتماء إليها، وأصبح شعره من بعده مثالًا حيًا على صدق المشاعر والأحاسيس، ونموذجًا فريدًا للشعر الوطني، الذي يعبر عن الأمة، وينطق باسمها، ويتغنى بحبها، ويدافع من أجلها، ويحيا بيحاتها، ويكافح من أجل بقائها، وتلك لعمري رسالة الشعر والأدب، لا تتمثل في تصوير خوالج الذات، والتعبير عن كوامن النفس فحسب، بل إنها رسالة دينية ووطنية واجتماعية في المقام الأول، ثم هي بعد ذلك كوامن نفسية، وغصات قلبية، ومشاعر ذاتية، يبثها صاحبها لتصوير ما في نفسه، وتجسيد ما بداخله.

ومن خلال هذه النماذج يتجلى للقارئ أن حافظًا كان شاعرًا وطنيًا من الطراز الأول، جعل من شعره أداة للتغني بوطنه، ووسيلة للتعبير عما يكمن في قلبه تجاه أمته، وقد استطاع بقدرته الفنية أن يستميل المتلقي بأسلوبه العذب الفريد، ولغته القوية المعبرة، وتلك موهبة فنية لا تتأتى إلا لشاعر امتلك ناصية البيان، فأجاد في تصوير أحاسيسه الداخلية، وتجسيد هويته الوطنية.

الصورة الثانية: مدْحُ الوطنيين ورثاؤهم

مرَّ بنا فيما سبق أن حافظًا كان شاعرًا وطنيًا، ينتمي إلى وطنه بحق، ويتغنى بعشقه لمصر، ويبث في تجاربه أحاسيس قلبه تجاهها، وكوامن نفسه نحوها، وتجلى في ديوانه رثاؤه لشخصيات وطنية مؤثرة في مجتمعها، ورموز مصرية ناضلت في سبيل تحريرها، وعاشت حياتها من أجل أمتها، يدافعون عن مصر في المحافل الدولية، ويبرزون -في بلاد أوربا- مساوئ المحتل وظلمه -، كما رثى حافظ أيضًا رموزًا وطنية أخرى كان لها أثر كبير في نهضة الشعوب وتثقيفهم، وكانوا عاملًا أساسيًا من عوامل الإصلاح الاجتماعي والسياسي والديني، وقد زخرت تجارب الشعراء بالحديث عن مآثرهم وسيرهم، ونضالهم وإصلاحهم، على غرار ما رأينا عند شعراء الإصلاح الاجتماعي والسياسي والديني، من أمثال البارودي وشوقي وغيرهما.

وقد تجلى هذا الأمر بوضوح في شعر حافظ إبراهيم؛ حيث نظم في هذا الباب أكثر من ثلاثين قصيدة، تتسم بالصدق الفني، والشعور الحي، والإحساس القوي؛ إذ إنَّ الرثاء ألصق الأغراض الشعرية بالنفس، وأبعدُ غالبًا عن مواطن المجاملات وأداء الواجب، فينبثق من إحساس صادق، وشعور دافق، مصورًا ما كان عليه المرثي من أخلاق سامقة، وشيم راقية، وشعر حافظ مليء بهذا الفن؛ حيث "رثى عظماء مصر من الساسة والمصلحين، فخلد ذكراهم، وأجرى على الدهر سيرتهم، واتخذ من مراثيهم منبرًا يهتف من فوقه بشباب الأمة: أن سيروا إلى المثل الأعلى، فساروا في ضوء أولئك العظماء الراحلين، وسلكوا طريقهم، فوصلوا بمصر إلى ما وصلت إليه"[1]، ومن أبرز تلك الشخصيات التي خلد حافظ ذكرها، وهتف باسمها الإمام محمد عبده، ومحمود سامي البارودي، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وغيرهم من أهل العلم والسياسة والأدب والإصلاح؛ وذلك حتى يجعلهم قدوة لشباب المجتمع المصري؛ لكي يسيروا على دربهم، ويجعلوا من إصلاحهم وأدبهم نبراسًا لحياتهم.

ومن أبرز القصائد التي رثى بها حافظ الأمامَ محمد عبده تلك القصيدة المشهورة التي يقول في مطلعها:[2]

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ ... سلامٌ على أيامه النضراتِ

عَلى الدينِ وَالدُنيا عَلى العِلمِ وَالحِجا ... على البرِّ والتقوى على الحسناتِ

لقد كنت أخشى عاديَ الموتِ قبله ... فأصبحتُ أخشى أن تطولَ حياتي

(١) محمود البشبيشي (المدائح والتهاني والرثاء في شعر المغفور له حافظ بك إبراهيم) صـ ٢٠١، صحيفة دار العلوم، الإصدار الثاني، عدد ١، سنة ١٩٣٧م.

(٢) ديوان حافظ صـ ٤٥٨.

فـــوالهفي - والقبـــرُ بينـــي وبينـــه- على نظـــرةٍ مـــن تلكـــمُ النظَـــراتِ
وقفـــتُ عليـــه حاســـر الـــرأس خاشـــعًا كـــأني حيـــالَ المـــوت في عرفـــات
لَقَـــد جَهِلـــوا قَـــدرَ الإِمـــامِ فَـــأَودَعوا تَجاليـــــدَهُ في مـــــوحِشٍ بِفَـــــلاةِ
وَلَـــو ضَـــرَحوا بِالمَســـجِدَينِ لَأَنزَلـــوا بِخَيـــرِ بِقـــاعِ الأَرضِ خَيـــرَ رُفـــاتِ
تَبارَكـــتَ هَـــذا الـــدينُ ديـــنُ مُحَمَّـــدٍ أَيُتـــرَكُ في الـــدُنيا بِغَيـــرِ حُمـــاةِ

أجاد الشاعر -في هذا المطلع- في إبراز عاطفته الحزينة؛ حيث استطاع ت صوير الموقف، ونقله إلى أذهاننا، وفي هذه البداية "يربط ماضيًا مشرقًا سارًا بحاضرٍ مؤلم، وكيف لا والشيخ محمد عبده يعد من أهم رواد الإصلاح الاجتماعي في الإسلام، وقد وقف بكل إباء وبسالة أمام تحديات العصر، ومفتوني الحضارة الغربية، والمصاب فيه جلل؛ فقد أصاب الدين والدنيا والبر والتقوى، والشاعر بهذا يشارك كل محزون بحزنه وكل مهموم بهمه"[1]، وحافظ في هذه الأبيات لا يكتم مشاعر الأسى، ولا يُخفي الإحساس بالألم، إنما يبينها، ويبرزها حينما يقف على قبر الإمام خاشعًا عاري الرأس كأنه مُحرِم بعرفات، وفي هذا إشارة إلى انكسار نفسه، وتفاقم حزنه، ثم يبالغ في هذا الإحساس عندما يتهم الناس بجهل قدر الإمام ومكانته؛ لأنهم وضعوا جسده في قبر موحش بالصحراء، وكان حريًا به أن يحفروا قبره بأحد المسجدين (الحرام والأقصى)؛ لأن خير الأجسام يدفن في خير البقاع.

ثم يواصل الشاعر بث عاطفته الحزينة، ومشاعره القلبية، فيتحدث عن خوف الإمام من ربه في كل مواقف حياته، وتقواه له في حركاته وسكناته، ثم يصف حافظ السنة التي مات فيها الشيخ

(١) د/ مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، (دراسات في الأدب العربي الحديث)، صـــ ١٨٤، طبعة خاصة بالمؤلف، ٢٠١٩م.

وما حدث فيها من أمور مفجعة، مخاطبًا إياها: (لأنت علينا أشـأم السـنوات)، ثم تأتي خاتمة القصيدة توضح فضل الإمام محمد عبده على الشاعر بصفة خاصة، وعلى المجتمع الإسلامي بـ صفة عامة؛ "فكل من اتـ صل به مغمور بفضـله، مكنوف بعظيم إحسـانه وكرمه، وفيها يتمثل الحزن الصادق، والاعتراف بالجميل الذي عُرف به حافظ، وفيها يتبين لنا ما كان عليه الإمام من تقوى وورع، وكرم وخير وبر"[1]، يقول حافظ في نهاية القصيدة:[2]

دعائمُـهُ التقـوى وآساسُـهُ الهُـدَى ... وفيـه الأيـادي موضـعُ اللبنـاتِ

عليـكَ سـلامُ الله مـا لـك موحِشًـا ... عُبُـوسَ المغـاني مُقْفِـرَ العَرَصـاتِ

لقـد كنـتَ مقصـودَ الجوانـب آهـلًا ... تطـوفُ بـك الآمـالُ مُبـتهِلاتِ

مثابـةَ أرزاق ومهـبِطَ حكمـةٍ ... ومَطْلَـعَ أنـوارٍ وكَنْـزَ عظـاتِ

وهكذا استطاع حافظ أن يبرز لنا عاطفته الشجية، ومشاعره الحزينة لفقد شخصية وطنية كان لها أثر عظيم في الإصلاح الاجتماعي والديني، وكان لها تأثير قوي في نهضة الأمة والسمو بالمجتمع، ومن ثم كانت عاطفة الشاعر في بث هذه التجربة عاطفة صادقة وقوية؛ لأنه أودع فيها دموع عينه، ونحيب قلبه، وحرقة نفسه، وبكى فيها على فراق الشيخ وموته بكاء حارًا ورثاء صادقًا.

ومن هذه الشـخـ صيات التي تحدث عنها حافظ، وكان لها عظيم الأثر في النهضـة الأدبية والعلمية للمجتمع المصري بل المجتمع العربي شخصيةُ محمود سامي البارودي، الذي بكى عليه حافظ بعد وفاته، ورثاه بقـ صيدة مليئة بالأسـى والحسـرة على فقده ووفاته، ومن يتأمل في

(١) د/ مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، (دراسات في الأدب العربي الحديث)،، صـ ١٨٧.

(٢) الديوان، صـ ٤٦٢-٤٦٣.

تجارب حافظ في هذا الباب يجد أن له أسلوبًا مميزًا؛ حيث جعل من الرثاء مسألة اجتماعية يتعايش مع آلامها كلُّ من يقرأ شعره أو يسمع قصائده، ومن هنا يمكن القول بأن الموت في شعر حافظ كان "وسيلة من وسائل شكوى الزمان، والحنق عليه والغيظ منه، فالزمان قد فعل بحافظ الأفاعيل، فرماه بالبؤس والفقر، ورمى أمته بالتفرق والتواكل والاحتلال، ورمى العالم الإسلامي بالغرب يمتص دمه، ويسومه سوء العذاب، فما هو إلا أن يموت ميت من أصدقائه حتى ينغر جرحه، ويتفجر ألمه"[(١)]، ونلاحظ هذا بوضوح في رثائه للبارودي، الذي كان رائدًا لمدرسة الإحياء والبعث، وكان سببًا من أسباب نهضة الأمة العربية والمصرية، يقول حافظ في مطلع هذه القصيدة:[(٢)]

رُدّوا عليَّ بياني بعدَ (محمودِ) إنِّي عَيِيتُ وأعْيا الشِّعْرُ مجهودي

ما للبلاغةِ غَضْبَى لا تُطاوِعُني وما لِحَبْلِ القوافي غيرَ مَمْدودِ؟

ظَنَّتْ سُكوتِيَ صَفْحًا عن مَوَدَّتِه فأسْلَمَتْني إلى هَمٍّ وتَسهيدِ

ولو دَرَتْ أنّ هذا الخَطْبَ أفْحَمَني لأطْلَقَتْ مِنْ لساني كلَّ مَعْقودِ

لبَّيْكَ يا مُؤْنِسَ المَوْتى ومُوحِشَنا يا فارِسَ الشِّعْرِ والهَيْجاءِ والجُودِ

في هذا المطلع المؤثِّر يتحدث الشاعر عن هول المصيبة على نفسه، ووقعها على قلبه، وكيف أن موت البارودي أعياه وقيّد لسانه وقلمه، وأن البلاغة أضحت لا تطاوعه فيما يريد أن يقول، ولا يخفى أن في هذا المطلع إشارة قوية إلى أن حافظًا كان

(١) د/ مصطفى عبد الرحمن، (الشيخ محمد عبده في شعر حافظ إبراهيم)، صـ ٥٩، مكة للطباعة، الطبعة الأولى٢٠٠٣م.

(٢) الديوان، صـ ٤٥٣.

شديد التأثر بموت أحبابه وأصدقائه، لا سيما إذا كان الميتُ من أهل العلم والفضل والأدب؛ ولذلك يخاطب البارودي في هذه الأبيات بقوله: لبيك يا مؤنس الموتى وموحشنا، وكأن في موته استئناسًا للأموات، ووحشةً ولوعة للأحياء، ومن هنا يجعل المصاب جللًا، وينقل التجربة من كونها ذاتية شخصية إلى مسألة اجتماعية عامة، يبكي فيها المجتمع على فقد المرثيّ، يقول حافظ مخاطبًا المرثيَّ:(١)

مُلْكُ القلوبِ -وأنت المُستَقِلُّ به- أبقى على الدهر من مُلكِ ابن داود
لقد نَزَحْتَ عن الدنيا كما نَزَحَتْ عنها لياليكَ من بِيضٍ ومن سودِ
أغمضتَ عينيك عنها وازدريتَ بها قبل الممات ولم تحفلْ بموجودِ
لبيكَ يا شاعرًا ضنَّ الزمانُ به على النُّهى والقوافي والأناشيدِ
تجري السلاسةُ في أثناء منطقه تحتَ الفصاحةِ جَرْيَ الماء في العُود
في كلِّ يبتٍ له ماءٌ يرفُّ به تَغارُ من ذكرهِ ماءُ العناقيدِ
لو حنَّطوك بشعرٍ أنت قائلُهُ غَنِيْتَ عن نَفَحاتِ المسك والعودِ
حلَّيْتَهُ بعد أنْ هذَّبْتَهُ بسنا عِقْدٍ بمدْحِ رسولِ اللهِ مَنْضودِ
كفاك زادًا وزَيْنًا أنْ تسيرَ إلى يومِ الحسابِ وذاك العِقْدُ في الجِيدِ
لبيكَ يا خيرَ مَنْ هزَّ اليراعَ، ومَنْ هزَّ الحُسام، ومَنْ لبَّى، ومَنْ نُودِي
إن هُدَّ رُكنُك منكوبًا فقد رَفَعَتْ لك الفضيلةُ رُكْنًا غيرَ مهدودِ
إنَ المناصبَ في عَزْلٍ وتوليةٍ غيرُ المواهبِ في ذكرٍ وتخليدِ

(١) الديوان ، نفس الصفحة.

يصور حافظ في هذه الأبيات أن البارودي رحل عن الدنيا غير آسف عليها؛ لأنه أدى رسالته، وأكمل مهمته، ورحل عنها وقد ملك قلوب من فيها، بمآثره الطيبة، وأدبه المعبر، وشعره المؤثر، رحل عنها كما رحلت أيام سعده وشقائه، وهو الشاعر الذي ضنَّ الزمان بمثله، ملأ الدنيا بشعره السلس، ومنطقه العذب، وأسلوبه الفصيح، المليء بالطلاوة والرونق والجمال في كل بيت من قصائده وأناشيده، ومن ثم فإن هُدّ ركنه، وانقضى أجله فإن شعره يرفع ذكره، ويخلد فنَّه وأدبه، يكفيه فخرًا أنه هذبه بسنا عقد بمديح منضود لرسول الله -ﷺ-، وإن كانت المناصب تزول في عزل وتولية؛ فإن المواهب تخلد أصحابها، وتجعل ذكرهم طيبًا وأثرهم حسنًا، وهكذا استطاع حافظ أن يصور هول الموت أفضل تصوير، وأن ينقل إحساسه الخاص إلى تجربة عامة، وأن يجعل من الشخصيات الوطنية رموزًا يُقتَدَى بها.

ولعل إبداع حافظ في فن الرثاء يرجع إلى طبيعته الشجية، ونفسه المكلومة، وحياته المليئة بالعثرات والأشواك، فجاء شعره متفقًا "وطبعه الحزين، ونفسه القلقة الشاكية، وأيضًا فإنه كان شديد التألم بمصائب الشعب وآلامه، فإذا حزن الشعب لموت مصلحٍ كبير مثل الشيخ محمد عبده أو مصطفى كامل؛ انطبع هذا الحزن في نفسه وعلى هذا النحو كان حافظ يشعر بما يشعر به شعبه شعورًا دقيقًا؛ لأن نفسه كانت خالصة، واستطاع أن يصوغ هذا الشعور في لغة جزلة متينة صياغة باهرة، وبذلك يتبوأ مكانته في تاريخ شعرنا الحديث"[1]، فتأتي تجاربه مؤثرة، وأبياته معبرة، وحزنه على فقد المرثيِّ صادقًا، نابعًا من شعوره القوي، وإحساسه الحسي، وعاطفته

(١) ينظر: د/ شوقي ضيف، (الأدب العربي المعاصر في مصر)، صـ١٠٩-١١٠، دار المعارف- القاهرة، ط ١٣.

المتدفقة، وأحاسيسه الصادقة؛ لأنه شعره كان نابعًا من صميم قلبه، وعميق وجدانه.

ومن الشخصيات التي رثاها حافظ أيضًا وهي من الرموز الوطنية التي ناضلت طيلة حياتها في سبيل استقلال مصر، شخصية مصطفى كامل الذي كان مناضلًا سياسيًا، ورمزًا وطنيًا، وكاتب وخطيبًا، سخر حياته من أجل وطنه، وعاش مدافعًا عنه، ومناضلًا في سبيله ضد المحتل الأجنبي، كان موت مصطفى كامل حدثًا جللًا، أثر في نفوس المصريين، وأثار عاطفة الشعراء الوطنيين، وفي مقدمتهم حافظ إبراهيم الذي رثى الفقيد بقصيدتين يشع منهما الحزن والأسى، يقول في مطلع القصيدة الأولى، والتي قالها في ١٢ فبراير من سنة ١٩٠٨م:[١]

أيا قَبْرُ هذا الضَّيْفُ آمالُ أمّةٍ ... فكَبِّرْ وهَلِّلْ والْقَ ضَيْفَكَ جاثِيَا

عَزيزٌ علينا أنْ نَرَى فيكَ (مُصطَفَى) ... شهيدَ العُلا في زَهْرَةِ العُمْرِ ذاوِيا

أيا قَبرُ لو أنّا فَقَدْناهُ وَحْدَه ... لكانَ التأَسِّي مِنْ جَوَى الحُزْنِ شافِيا

ولكنْ فَقَدْنا كلّ شيءٍ بفَقْدِه ... وهَيهاتَ أنْ يأتي به الدَّهْر ثانيا

فيا سائلي أيْنَ المُروءَةُ والوَفا ... وأينَ الحِجا والرَّأيُ؟ وَيْحَكَ هاهِيا

هنيئًا لهمْ فليَأْمَنُوا كلَّ صائحٍ ... فقد أُسْكِتَ الصَّوْتُ الذي كان عَالِيا

وماتَ الّذي أحْيا الشُّعورَ وساقَه ... إلى المَجْدِ فاستَحْيا النُّفوسَ البَوالِيا

(١) الديوان، صـ ٤٦٣-٤٦٤.

وفي القصيدة الثانية التي قالها في ٢٠ مارس من سنة ١٩٠٨م يقول حافظ:[١]

نَثَـــروا عليْـــكَ نـــواديَ الأزْهـــارِ وأتَيْـــتُ أنْثُـــرُ بيـــنهمْ أشـــعاري
زَيْـنَ الشَّـبابِ وزَيْـنَ طُـلاّبِ العُـلا هـل أنـتَ بـالمُهَجِ الحزينَـةِ داري؟
غادَرْتَنـــا والحادثـــاتُ بمَرْصَـــدٍ والعـــيْشُ عَـــيْشُ مَذَلّـــةٍ وإســـارِ
مـا كـان أحْوَجَنـا إليـكَ إذا عَـدَا عـادٍ وصـاحَ الصـائحون: بَـدَارِ
أيْـنَ الخَطيـبُ وأيْـنَ خَـلاّبُ النُّهـى؟ طـالَ انتِظـارُ السَّـمْعِ والأبْصـارِ
بـاللهِ مـا لَـكَ لا تُجيـبُ مُنادِيًـا مـاذا أصـابَكَ يـا أبـا المِغْـوارِ؟!

وعلى هذا الوتر الحساس، وتلك النغمة الآسرة، والأبيات المؤثرة، استطاع حافظ أن يجعل من فَقْدِ هؤلاء الم صلحين والوطنيين م صيبة عامة أقضت نفوس الجميع، وألهبت قلوبهم بالحماسة الوطنية، وقد مثَل رثاءُ حافظ لهم تطورًا لفن الرثاء في الشعر العربي، "وخاصة حين يُرثي من فقَدَهم الشعبُ من مُ صلحيه وقادته، أمثال محمد عبده، وم صطفى كامل، الَّذَيْن صور في رثائهما لوعته وحزنه، وإنما تأتي هذه روعة الشاعر في الرثاء من أنه ي صور فيها لوعة أمته وحزنها على فلذات أكبادها حزنًا يقطع نياط القلوب"، فإذا رثى عالم دين كالإمام محمد عبده؛ بيّن فجيعة العلم والدين والإصلاح في فقده، وإذا رثى شاعرًا كالبارودي؛ بيَّن فجيعة الأدب والشعر في فقده وموته، وإذا رثى مناضلًا سياسيًا وزعيمًا وطنيًا كم صطفى كامل؛ بيّن حزن الأمة عليه، وجسامة الخطب الذي أصاب أبناء الشعب في سويداء قلوبهم.

وعلى هذا النمط في رثاء الوطنيين جاء مدح حافظ أيضًا، ي صور في ق صائد مدحه للرموز

(١) الديوان، صـ ٤٦٥.

الوطنية عظيم أثرهم، وحسن أفعالهم، وهذا نلاحظه في مدحه لكثير من رموز الوطن المؤثرين، وشخ صياته العظيمة، من أمثال الشيخ محمد عبده الذي مدحه في قصائد كثيرة، وتجارب متعددة، بيّن فيها مشاعر صادقة، وأحاسيس دافقة، وجاءت مدائحه بعيدة عن التكسب، متضمنة كثيرًا من معاني الصدق والإخلاص، ممزوجة بالروعة والجلال النابعين من صدق شعوري، وإخلاص روحي، وقد كان للإمام محمد عبده من مدائح حافظ نصيب الأسد؛ ولم لا؟ "والإمام هو الذي رباه، وعطف عليه، وبالمقابل فإن حافظًا كان ملازمًا له، يتبعه كظله في حله وترحاله... من هنا كانت مدائح حافظ في الإمام صادقة كل الصدق، بارعة كل البراعة، سامية كل السمو"[1]، ويتجلى هذا من خلال النماذج الشعرية التي مدح فيها حافظ الإمامَ المربي، ومن ذلك قوله يهنئه بتقلد منصب الإفتاء سنة ١٨٩٩ م يبعث إليه بما يعبر عن إعجابه الشديد وافتتانه بتلك الشخصية العظيمة، يقول حافظ:[2]

بَلَغتُكَ لَم أَنسُب وَلَم أَتَغَزَّلِ ... وَلَمّا أَقِف بَينَ الهَوى وَالتَذَلُّلِ
وَلَمّا أَصِف كَأسًا وَلَم أَبكِ مَنزِلاً ... وَلَم أَنتَحِل فَخراً وَلَم أَتَنَبَّلِ
فَلَم يُبقِ في قَلبي مَديحُكَ مَوضِعًا ... تَجولُ بِهِ ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ
رَأَيتُكَ وَالأَبصارُ حَولَكَ خُشَّعٌ ... فَقُلتُ أَبو حَفصٍ بِبُردَيكَ أَم عَلي
وَخَفَّضتُ مِن حُزني عَلى مَجدِ أُمَّةٍ ... تَدارَكتَها وَالخَطبُ لِلخَطبِ يَعتَلي
طَلَعتَ بِها بِاليُمنِ مِن خَيرِ مَطلَعٍ ... وَكُنتَ لَها في الفَوزِ قِدحَ اِبنِ مُقبِلِ

المتأمل في هذه الأبيات يجد أن حافظًا لم يسلك في مدحه طريق القدماء، فلم يبدأ بغزل أو

(١) د/ يحيى شامي، (حافظ إبراهيم حياته وشعره)، صـ ٤٥، دار الفكر العربي بيروت.

(٢) الديوان، صـ ٤.

فخر أو وقوف على الأطلال؛ لأن قلبه أصبح مقصورًا على حب الإمام، ولم يبق في هذا القلب مكان لمحبوب آخر، ولا شك أن هذا دليل على منزلة عظيمة تبوأها الإمام في قلب حافظ، وهو الذي يرى فيها أمثال أبي حفص وعلي بن أبي طالب ﷺ؛ ولذلك يصور حافظ الإمامَ وحوله الناس يستمعون إليه، خاشعي أبصارهم، يستمعون إلى تلك الفيوضات العلمية التي تجلى الله بها عليه، ليرفع من مكانة الإسلام، ويخفض من حزن الشاعر على أمة تراكمت عليها الخطوب، فتداركها الإمام، وطلع عليها باليمن، وحقق لها الفوز العظيم بحكمة الداعية المصلح، الذي يدعو إلى الله على بصيرة.

ونراه في قصيدة أخرى يمدح الإمام، ويصف حضرته، فيقول:(١)

قالوا صَدَقتَ فَكانَ الصِدقَ ما قالوا ... ما كُلُّ مُنتَسِبٍ لِلقَولِ قَوّالُ

هَذا قَريضي وَهَذا قَدرُ مُمتَدَحي ... هَل بَعدَ هَذَينِ إِحكامٌ وَإِجلالُ

إِنّي لَأُبصِرُ في أَثناءِ بُردَتِهِ ... نورًا بِهِ تَهتَدي لِلحَقِّ ضُلّالُ

حَلَلتُ داراً بِها تُتلى مَناقِبُهُ ... بِبابِها اِزدَحَمَت لِلناسِ آمالُ

يصور حافظ في هذه الأبيات مقالة الصدق التي قالها الناس في شخص الإمام محمد عبده، ويصفهم بأنهم صادقون فيما قالوه، "ثم ينفي انتساب القول عن كل قوّال ليصل إلى إثباته لأصحاب الألسنة الذرية والقول الحسن، وكان حافظ على رأس هؤلاء في إهداء شعره المدحي لهذا الإمام، وهو شعر يتسم بالإحكام في الصياغة، والإجلال في المعنى، الذي استمد عظمة الممدوح، ويرى في بردته نورًا يتلألأ، وهو نور المعرفة والحق والإيمان، تهتدي به القلوب

(١) الديوان، صـ٥.

الحائرة، والعقول الضـــالة عن معرفة الحق، فما أعظم هذا النور الذي يحمله هذا الإمام بين جنباته"[1]، وهكذا اسـتطاع الشـاعر أن يجعل من تلك الرموز الوطنية قامات عظيمة يهتدي بها أبناء الأمة، ويحتذي حذوها مَن أراد الهدى والرشاد، ويقتدي بها من أراد التأسي والاقتداء.

(١) ينظر: د/ مصطفى عبد الرحمن، (الشيخ محمد عبده في شعر حافظ إبراهيم)، صـ ٤٠.

الخاتمـــة

الحمـد لله، والـ صلاة والسـلام علـى سـيدنا رسـول الله، وعلـى آلـه وأصـحابه ومَـن اتبـع هداه، وبعد.

ففـي نهايـة هـذه الإطلالـة السـريعة، واللمحـة الخاطفـة علـى ديـوان حـافظ إبـراهيم، يمكننـي أن أسـجل هنـا بعـض النتـاج التـي توصـلتُ إليهـا مـن خـلال البحـث والدراسـة، والتـي أسـأل الله أن تكون دالة معبرة، بناءة نافعة، ومن أهم نتائج البحث ما يأتي:

أولاً: ارتبط مفهوم الهوية الوطنية ارتباطًا عضويًا بتيار الوعي الجماعي، والنضج الفكري في المجتمع المصري عبر تاريخه الطويل، لا سيما في فترات الصراع والنضال الشعبي ضد المحتل الأجنبي.

ثانيا: كانت الهوية العربية في المجتمع الجاهلي واضحة المعالم، لا سيما إذا اصطدم العربُ بعدوان يمس كرامتهم، أو ينقص من قدرهم، أو يستثير غيرتهم على أرضهم ووطنهم.

ثالثًا: كان الأدب العربي عاملًا أساسيًا من عوامل إبراز الهوية الوطنية، والتعبير عن الوجود الحضاري والديني والفكري واللغوي، وقد اتخذ الأدباء العربُ -كُتابًا وشعراءَ- من أدبهم وسيلة للتعبير عن اعتزازهم بوطنهم، دفاعًا عن الدين واللغة والأرض والعِرض.

رابعًا: الشعر العربي هو وسيلة مهمة في الدعوة إلى الأخلاق القويمة، والتعاليم السمحة، التي ترتقي بالشعوب وتنهض بالمجتمعات، لا سيما إذا انبثق هذا الشعرُ من روح إسلامية، وعبر عن قضايا وطنية، وكان تصويرًا للواقع الخارجي، وتعبيرًا عن هموم الناس وأحوالهم.

خامسًا: أن حافظًا كان من الشعراء الوطنيين، الذين سخَّروا موهبتهم لوطنهم، وجعلوا من شعرهم صوتًا لشعوبهم، حيث تغنَّى بحبِّ مصرَ في كثير من التجارب المؤثرة، والقصائد المعبرة،

وقد كان كذلك محبًا للغته، مدافعًا عنها، مناضلًا في سبيلها ضدَّ دعوات التغريب والتبديد، وصدق فيه شوقي حين قال في رثائه:

يـا حـافظ الفصـحى وحـارس مجـدها ... وإمـامَ مَـنْ نَجَلَـتْ مَـن البلغـاء
مـا زِلْـتَ تَهْتِـفُ بالقـديم وفَضْـلِهِ ... حتـى حَمَيْـتَ أمانـةَ القـدماء
خلّفـتَ في الـدنيا بيانًـا خالـدًا ... وتركـتَ أجيـالًا مـن الأبنـاء
وغـدًا سـيذكرُك الزمـانُ ولـم يَـزَلْ ... للـدهر إنصـافٌ وحُسْـنُ جـزاء

أضـف إلـى مـا سـبق أن حافظًـا كـان صـاحب شـعور قـوي، وضـمير حـي، يعـيش في وطنـه ولوطنـه، لا يعـرف لليـأس سـبيلًا، مهمـا بلـغ مجتمعـه في التـردي والانحطـاط، بـل يسـعى دائمًـا إلـى بـث روح التفـاؤل في نفـوس النـاس، ويكـافح مـن أجـل تنقيـة مجتمعـه مـن الرذائل والآفات.

المصادر والمراجع

١. ابن منظور (لسان العرب)، مادة (هوي).

٢. أبو البقاء الكفوي (الكليات)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٣. أحمد الطاهر، (محاضرات عن حافظ إبراهيم حياته وشعره)، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٤م.

٤. أحمد مختار (معجم اللغة العربية المعاصرة)، مادة (هوي).

٥. حافظ إبراهيم، (الديوان)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

٦. د/ أحمد هيكل، (تطور الأدب الحديث في م صر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية)، دار المعارف، الطبعة السادسة ١٩٩٤م.

٧. د/ حسن أحمد الكبير (تطور القصيدة الغنائية في العصر الحديث)، دار الفكر العربي بدون تاريخ.

٨. د/ حسن السيد خضر، (شعر حافظ الاجتماعي وآراء النقاد فيه)، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، عدد ١١، مجلد ٢ سنة ١٩٩٢م.

٩. د/ خليل نوري مسيهر (الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية)، سلسلة الدراسات الإسلامية العاصرة ٥٨، العراق، ديوان الوقف السني.

١٠. د/ شوقي ضيف (فصول في الشعر ونقده) ، مكتبة دار المعارف- القاهرة، ط/ ٤ بدون تاريخ.

١١. د/ شوقي ضيف (في النقد الأدبي)، دار المعارف، ط/ ٥ بدون تاريخ.

١٢. د/ شوقي ضيف، (الأدب العربي المعاصر في مصر)، دار المعارف- القاهرة، ط ١٣.

١٣. د/ محمد محمد عليوة (فصول في نظرية الأدب)، دار الهاني للطباعة والنشر والتوزيع.

١٤. د/ مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، (دراسات في الأدب العربي الحديث)، طبعة خاصة بالمؤلف، ٢٠١٩م.

١٥. د/ مصطفى عبد الرحمن، (الشيخ محمد عبده في شعر حافظ إبراهيم)، مكة للطباعة، الطبعة الأولى٢٠٠٣م.

١٦. د/ نبيل راغب (التفسير العلمي: للأدب نحو نظرية عربية جديدة)، المركز الثقافي الجامعي، بدون تاريخ.

١٧. د/ نفوسة زكريا سعيد، (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر)، دار المعارف- القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

١٨. الشريف الجرجاني (التعريفات)، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط/ ١ / ١٩٨٣م.

١٩. عبد الرحمن الرافعي، (شعراء الوطنية في مصر تراجمهم وشعرهم الوطني والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم)، الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهرة.

٢٠. فاطمة موسى، (اللغة العربية وإشكاليات الهوية)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، بحث منشور بموقع المجلة الإلكتروني بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٢١م، برابط https://www.hnjournal.net/2-11-31/

٢١. فاطمة موسى، (اللغة العربية وإشكاليات الهوية)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، بحث منشور بموقع المجلة الإلكتروني بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٢١م، برابط https://www.hnjournal.net/

٢٢. محمد إبراهيم علي (إشكالية الهوية في شعر محمد عمران)، مجلة تحاد الكتاب العرب، مجلد ٤١، عدد ٤٩٤، ٢٠١٢م.

٢٣. محمد هارون الحلو، (حافظ إبراهيم شاعر القومية العربية)، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

٢٤. محمود البشبيشي (المدائح والتهاني والرثاء في شعر المغفور له حافظ بك إبراهيم)، صحيفة دار العلوم، الإصدار الثاني، عدد ١، سنة ١٩٣٧م.

٢٥. د/ يحيى شامي، (حافظ إبراهيم حياته وشعره)، دار الفكر العربي بيروت.

فهرس الموضوعات

المقدمـــة ٢٥٧
التمهيد: التعريف بالهوية ٢٦١
مفهوم الهوية ٢٦١
الهوية في اللغة ٢٦١
الهُوية في الاصطلاح ٢٦٢
المبحث الأول: تعزيز الهوية القومية والوطنية ٢٦٥
أولاً: دفاعُه عن اللغة العربية ٢٦٥
ثانيًا: دفاعُهُ عن وطنه ٢٧١
ثالثًا: دفاعه عن المجتمع ٢٧٧
الصورة الأولى: حديثه عن الفقراء والبؤساء ٢٧٩
الصورة الثانية: نقد سلبيات المجتمع ٢٨٦
المبحث الثاني: غَرْسُ القيم الوطنية ٢٩٠
الصورة الأولى: التغنِّي بحبِّ الوطن ٢٩١
الصورة الثانية: مدْحُ الوطنيين ورثاؤهم ٢٩٨
الخاتمـــة ٣١٠
المصادر والمراجع ٣١٢
فهرس الموضوعات ٣١٥